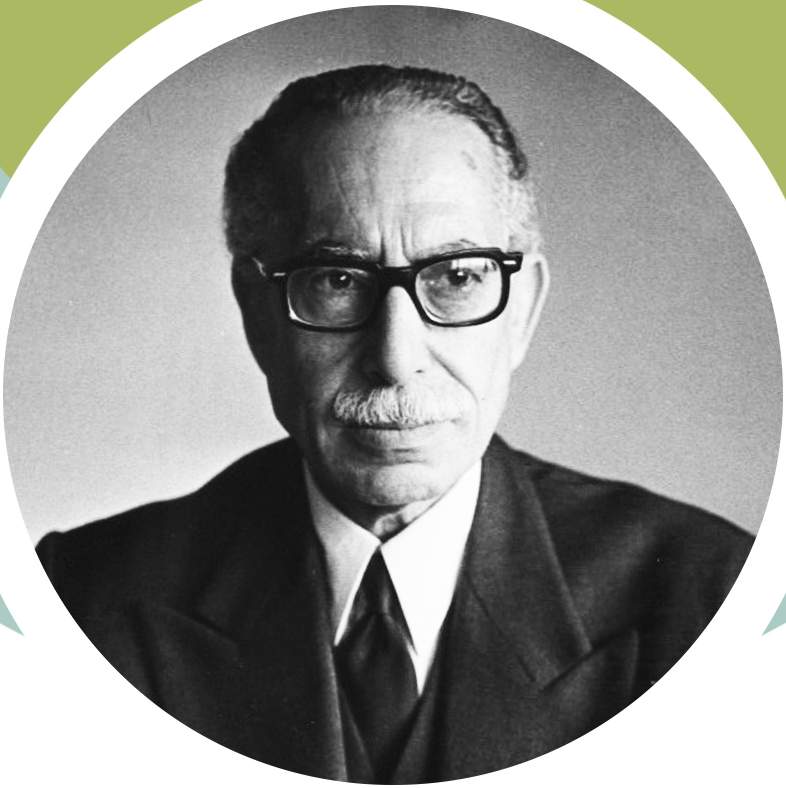

حماري الفيلسوف

توفيق الحكيم

حماري الفيلسوف

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

حماري الفيلسوف

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣٢٢ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٠.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

المقدمة ٧
الفصل الأول ١١
الفصل الثاني ١٥
الفصل الثالث ٢١
الفصل الرابع ٢٩
الفصل الخامس ٣٣
الفصل السادس ٣٧
الفصل السابع ٤٥
الفصل الثامن ٤٩
الفصل التاسع ٥٥
الفصل العاشر ٦١
الفصل الحادي عشر ٦٩
الفصل الثاني عشر ٧١
الفصل الثالث عشر ٧٧
الفصل الرابع عشر ٨١

المقدمة

قال حمار الحكيم «توما»: متى ينصف الزمان فأَركب، فأنا جاهل بسيط، أما صاحبي فجاهل مركَّب!

فقيل له: وما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركب؟

فقال: الجاهل البسيط هو من يعلم أنه جاهل، أما الجاهل المركَّب فهو من يجهل أنه جاهل!

«أسطورة قديمة»

إلى صديقي ...

الذي وُلد ومات وما كلَّمني

لكنه ... علَّمني! ...

الفصل الأول

عرفته في يومٍ من أيام الصيف الماضي ... في قلب القاهرة ... وفي شارعٍ من أفخم شوارعها ... كنت أسير في ذلك الصباح إلى حانوت حلاقي ... وكان الهواء حارًّا ممزوجًا بنسيمٍ لطيف ... وكان صدري منشرحًا؛ فقد صادفت وجهًا مليحًا، لغادةٍ شقراءَ هبطت معي بكلبها في مصعد الفندق الذي أتَّخذه منزلًا، مشيت وأنا أكاد أصفِّر بفمي وأترنَّم ... وأشرفت على حانوت الحلاق ... وإذا أنا أراه ... أرى ذلك الذي كُتب لي أن يكون صديقي ... رأيته يخطِر على الإفريز كأنه غزال، وفي عنقه الجميل رباط أحمر، وإلى جانبه صاحبه: رجل قروي من أجلاف الفلاحين ... ووقف المارة ينظرون إليه ويحدقون، وبجمال منظره ورشاقة خطاه يعجبون ... لقد كان صغير الحجم كأنه دُمية ... أبيض كأنه قُدَّ من رخام، بديع التكوين كأنه من صنع فنان ... وكان يمشي مطرقًا في إذعان، كأنما يقول لصاحبه: اذهب بي إلى حيث شئت فكل ما في الأرض لا يستحق من رأسي عناء الالتفات.

ذلك هو «الجحش» الصغير الذي استرعى أنظار الناس في ذلك الشارع الكبير ... ومنظر جحش في مثل هذا الحي كافٍ وحده لإلقاء العجب في النفوس ... ولكن هذا الجحش كان ولا ريب جميلًا في الجحوش ... فقد كانت عيون المارة تشع بالإعجاب قبل العجب ... ووقفت به سيدات إنجليزيات داخلات محل «جروبي» فما تمالكن أنفسهن من إظهار الحب له ... فلو أنه شيء يُحمل لما ترددن في اقتنائه وحمله كما تُقتنى الحليُّ وتُحمل ... وكان صاحبه يريد بيعه فيما خيل إليَّ ... فلقد سمعته يقول لمن أحاط به من مارة وباعة صحف وغلمان.

– بخمسين «قرش»!

وكانت قدماي على الرغم مني تسيران بي مع الجمع المحيط بالجحش ... وكانت عيناي على الرغم مني لا تنحرفان عن النظر إلى هذا المخلوق الصغير الجميل وإذا بفمي على الرغم مني ينطلق صائحًا: بتلاتين «قرش»!

فالتفت الجمع كله نحوي ... ودار لغَط وارتفع كلام، وإذا بي أرى رجلًا قد انبرى من بين الجمع: هو بائع صحف يعرفني ويبيعني صحفه، قد تطوع للعمل باسمي، فجذب الجحش من يد صاحبه الفلاح الحريص؛ وصاح في وجهه: سيدنا البك أمر، أمره يمشي على رقبتنا!

فأطبق الفلاح يده على عنق الجحش وصاح: تلاتين قرش! ... هو فرخة رومي!

– عيب يا جدع انت ترد على البك الكلام!

– والله ما افرَّط فيه باقل من اربع برايز!

وحمي الشدُّ والجذب بين الرجلين ... حتى كاد ينخلع في أيديهما عنق الجحش المسكين ... وانتهى الأمر بانتصار سمساري المتطوع ... فقد صارت في يده البضاعة قسرًا ... فالتفت إليَّ قائلًا: هات يا بك التلاتين «قرش»!

فتردد البائع وتراخى ولكنه أراد مع ذلك أن يحتجَّ قليلًا فأغلق الرجل فمه بقبضته وصاح: اسكت الَّا «اخرشمك»! ... هات يا سيدنا البك الفلوس واستلم الجحش، مبارك عليك! ... بيعة حلال بنت حلال! ... وتقدم نحوي ساحبًا الحمار ليسلمني قياده الأحمر المتدلي من عنقه ... هنا ذهبت السَّكرة وجاءت الفكرة ... لقد تمت الصفقة من حيث لا أرجو في حقيقة الأمر ولا أنتظر ... فقد جرى كل شيء وأنا في شبه غيبوبة؛ فالثمن الذي حددته بثلاثين قرشًا إنما خرج من فمي دون تفكير أو تدبير ... رقمٌ لُفظ على سبيل المداعبة ... فإذا الهزل يصبح جدًّا ... ودخل الآن الجحش في ملكي وحيازتي ... فما عساي أصنعُ به الآن وأنا داخل حانوت الحلاق ... وأين أضعه ولا منزل لي غير حجرةٍ وحمام في فندق معروف؟

وفوق هذا فجيبي كان خلوًا وقتئذٍ من مبلغ الثلاثين قرشًا.

فلم أكن أحمل ذلك الصباح غير ورقة مالية كان في عزمي استبدالها بنقود صغيرة فأردت الرجوع في الصفقة ... فتعذَّر عليَّ الأمر ... ولاحقني البائع والسمسار بالحمار.

فقلت منزعجًا مرتبكًا وأنا أشير إلى حانوت الحلاق.

– لكن ... أنا داخل أحلق.

فأجاب بائع الصحف من الفور!

– تفضل حضرتك احلق في أمان الله ... وانا أقعد لك «بلا قافية» بالجحش على الباب في انتظارك!

فقلت متململًا حائرًا: وحتى المبلغ.

فعاجلني الرجل قائلًا: أنا أفك لحضرتك حالًا من عند الدخاخني ... وسد الرجلان في وجهي المسالك، ولم يشفع لي عندهما قول ولا حجة ... ولم يفد اعتذار ... ولزمني الحمار ... فأذعنت ... وأشرت إليهما فتبعاني به إلى حانوت الحلاق ... ودخلت ... فقلت للحلاق أن يؤدي عني الثمن من صندوقه ... فأدَّاه ... وانصرف الفلاح ووقف بائع الصحف على باب الحانوت بالجحش ... يطرد المتجمعين حوله من المارة والغلمان وأهل الفضول ... وأنا جالس أفكر في الأمر وما أنا صانع بعد ذلك بهذا الحمل، والحلاق يلطخ ذقني بالصابون ويتغزل في جمال الجحش ويثني على رزانته، ويتحدث عما يلزم له من الغذاء والخدمة ... ويتنبأ بما ينتظره من مستقبل باهر يوم يغدو كالفرس الأشهب ... وبقية «زبائن الحانوت ينظرون إليَّ وإلى كل هذا ويكتمون ضحكهم ويخفون في رءوسهم ما خالجهم في أمري من ظنون، إلى أن فرغت من الحلاقة فنهضت ودفعت الورقة المالية إلى صاحب الحانوت فأخذ ما له عندي ... وخرجت فاستقبلني بائع الصحف ... وقدم إليَّ زمام الجحش وهو يقول: اطلقه حضرتك يجري في الجنينة!

فقلت كالمخاطب نفسي: لو كانت الجنينة موجودة لهانت المسألة.

فقال الرجل: اطلقه على السطح والا في «الحوش» مع من غير مؤاخذة الخرفان.

فقلت وقد تخيَّلت مسكني في الفندق: وإن كنا نطلقه في الحمام.

فقال الرجل فاغرًا فاه: الحمام؟!

فلم أردَّ على اعتراضه واستغرابه وقلت له آمرًا: اسبقني به على لوكاندة «...»

نعم، لقد فكرت في الأمر فوجدتُ أن هذا الجحش الجميل ليس أهون قدرًا ولا أقل ظرفًا من ذلك الكلب الذي رأيته اليوم في صحبة الفتاة الشقراء ... فما الضرر في أن يصحبني اليوم فأُنزله ضيفًا عليَّ يقاسمني حجرتي حتى العصر، لقد كنت أُزمع السفر عصر ذلك اليوم بالذات إلى ريف قريب في مهمة غريبة، يأتي بيانها عما قليل ... فليبقَ معي إذن إلى أن أذهب به إلى الحقول فأطلقه يرتع فيها ويمرح ... على أن ما شغل بالي هو أمر طعامه اليوم ... لقد كان الحلاق يتحدث فيما تحدث عن غذائه أنه لن يطعم غير اللبن؛ فهو رضيع فيما يرى، ابن يوم أو يومين، وقد انتُزع من ثدي أمه انتزاعًا ليباع في شوارع القاهرة ... ولعل ذلك لعسرٍ وقع فيه صاحبه ... فالفلاح إذا جاع باع كل ما يمكن أن يباع ... من يدري، لعل هذا الرضيع اليتيم هو آخر حلقة في سلسلة شقاء طويل ... ولم أسترسل في التأمل ... فقد تجمَّع حولنا الناس من جديد ... فأشرت إلى بائع الصحف أن يسرع بالجحش أمامي

وأنا أتبعه عن كثب، فجذبه من رباطه الأحمر ... فمشى المسكين مشيته الرزينة في إطراقه وإذعانه، دون أن يُعنى بتبدُّل الصاحب وتغير المصير ... وجعلت أتأمله من بعيد في مشيته ... إنها تشبه مشيتي أحيانًا ... إذ يخيل إليَّ في لحظات كأن رأسي قد ارتفع عن لجة الوجود المنظور إلى فضاء الوجود غير المنظور.

فأمرُّ بالحياة مذعنًا ... لا أحفل بمن معي ولا بمعرفة وجهتي.

نعم، إن مشيتي كمشيته أحيانًا، ونظراتي أحيانًا كنظراته الجامدة المشرفة على عالمٍ ساكنٍ صافٍ مجهول، قد أُغلقت دون الآدميين أبوابه السبعة المختومة بسبعة أختام.

اللهم اغفر لي هذا الغرور، إذ أرفع نفسي إلى مقام التشبه بهذا الكائن العجيب!

الفصل الثاني

بلغْنا الفندق ... فأومأت إلى أحد الخدم الواقفين ببابه ... فأقبل نحوي ... وهو نوبي أمين اعتاد أن يقوم بخدمتي ويُعنى بأمري، واعتدت أن أسخوَ عليه وأبذل له في العطاء ... فلما دنا مني أريته الجحش في يد «السمسار» ... وطلبت إليه همسًا أن يحمله بين ذراعيه ويصعد به «سلم الخدم» ويضعه خفيةً في حمام حجرتي ... فحملق الرجل في وجهي بعينيه ... فأخرجت من جيبي قطعة فضية دسستها في كفه، أفاقته من عجبه، وهيأته لصنع المستحيل ... فأطبق على الجحش واحتضنه وذهب به وهو يتلفت يمينًا وشمالًا خشية أن يراه من يشي به لدى مدير الفندق.

ونظرت إلى بائع الصحف فرأيته يفرك كفيه في انتظار الأجر ... فدفعت إليه هو الآخر قطعة فضية لثمها سرورًا ... وانصرف وهو يرفع يديه إلى السماء ويقول: ربنا يهنِّيك به! ... ربنا يبقيه لك! ... ربنا ما يحرق لك عليه كبد!

وغاب عن عيني في منعطف الطريق ... وأنا أنظر إليه ولا أدري إن كان يسخر مني أم يقول جدًّا.

ودخلت الفندق من بابه الكبير الدائر ووقفت في البهو قليلًا أتصفح وجوه النازلين فيه من سائحين وسائحات، ثم ارتقيت بالمصعد إلى حجرتي في الطابق الخامس، ودخلتها فألفيتها كما تركتها، كل شيء فيها قائم في مكانه على أحسن ترتيب ... كتبي وورقي فوق المكتب وملابسي في الخزانة وفوق المشجب ... و«جراموفوني» وأسطواناتي ... وأواني الزهر فوق المناضد ... وأصص الورد على حاجز الشرفة ... لا شيء مطلقًا يدل على أن في هذا المكان «دابة ركوب» ... واتجهت إلى الباب الصغير الموصل إلى الحمام الملحق بحجرتي وفتحته وإذا أنا أمام الجحش واقفًا رزينًا مطرقًا على عادته ... فتأملته لحظة في إعجاب، ثم تركته إلى هدوئه وصفائه، وعدت إلى الحجرة وضغطت على زر الجرس ثم ارتميت في

مقعدي الكبير إلى جوار باب الشرفة ... وما لبث بابي أن طُرق عليَّ ... ثم ظهر خادم الطابق.

فابتدرته قائلًا: واحد قهوة لي، وواحد لبن لـ ... وأشارت عيني على الرغم مني إلى جهة الحمام ... ولكني لم أستطع أن أُتم الكلام ... فهذا الخادم ليس عنده بعدُ علم بالموضوع.

فقال سائلًا في أدب: لمين!

– لـ ... بعدين تعرف.

قلتها على عجل وأنا أومئ إليه بيدي لينصرف إلى تلبية الأمر ... وذهب الخادم ثم عاد بعد قليل يحمل صينية جميلة من «الكريستوفل» عليها فنجانان نظيفان وإبريقان لامعان ... ووضع أحد الفنجانين مع إبريق القهوة أمامي ثم وضع الآخر مع إبريق اللبن تجاهي وجذب كرسيًّا من ركن الحجرة وضعه أمام الفنجان الثاني، فما تمالكت نفسي من الابتسام ... وخرج الرجل وأغلق خلفه الباب في لباقة وكل شيء فيه يدل على أنه قد فهم ... فهم ما قد يخطر على بال خادم فندق اعتاد أن يحضر «طلبات» المواعيد اللطيفة، في الخلوات الظريفة.

وما كدت أخلو إلى نفسي، حتى أسرعت إلى الحمام بفنجان من اللبن وضعته على «سجاد الفلين» تحت فم الجحش ... وانتظرت أن يرشف هذا الصديق من اللبن رشفة أو رشفتين ... فإذا هو جامد لا يتحرك وإذا عيناه تنظران إلى الفنجان في غير اكتراث ... كما تنظر عين الزاهد إلى لذات الحياة ... فعجبت وقلت في نفسي: هذا مستحيل ... مهما يبلغ زهد هذا الفيلسوف فإن فنجانًا من اللبن لا يعد من الترف في شيء، ولا أحسب بعدُ أن هذا المخلوق الصغير يستطيع أن يتحمل الصوم وقتًا طويلًا ... لا بد من علةٍ في الأمر ... وأعجزني معرفة السبب ... فأنا حديث عهد بمعرفة طباع هذا النوع الطريف من المخلوقات؛ فإن جُلَّ معارفي منحصرة في ذلك النوع المبتذل الذي يسمونه النوع «الإنساني» ... وهو على ما رأيت منه لا يأبى مطلقًا التهام ما يقدم إليه مما يؤكل ومما لا يؤكل ... حتى لحم أخيه ... وهو دائمًا جوعان ... عطشان إلى شيء ... وهو لا يصنع شيئًا إلا لغاية ومأرب، حتى صلاته وصيامه ... ورأيت آخر الأمر أن أسترشد بالحلاق؛ فهو فيما خُيل إليَّ عليم بما لا أعلم من هذا الأمر ... فتركت حجرتي وهبطت إلى الطريق سريعًا ... ومشيت إلى حانوت الحلاق ... وإذا بي أعثر «بالسمسار» فما كاد يراني حتى صاح بي باسمًا: إزاي حال «اسم الله عليه»؟

فضحكت وقلت له: اسمع يا ... إنت اسمك إيه؟

– محسوبك دسوقي.

– اسمع يا دسوقي … إنت مش قلت إنه يشرب لبن؟

– معلوم يشرب لبن.

– وإيه رأيك إنه مارضاش حتى يلتفت للفنجان!

فحملق الرجل في وجهي وقال: فنجان؟!

فقلت: أيوة … طلبت له واحد لبن.

فقاطعني الرجل صائحًا: طلبت له واحد لبن! … هو من غير مؤاخذة سواح من السواحين! … دا يا سيدنا البك جحش ابن يومين بالكتير بيرضع من بز أمه … دا لازم له من غير مؤاخذة «بزازة» من الأجزاخانة!

فأدركت في الحال مقدار جهلي وغباوتي وقلت: آه، صحيح … عندك حق!

وتركته … وأسرعت إلى أجزاخانة قريبة فدخلتها وطلبت من فوري «بزازة».

فسألني الأجزجي: الولد عمره أد إيه؟

فارتبكت وقلت: والله … مش ولد.

فقال الأجزجي: البنت.

– ولا بنت.

فحملق الرجل في وجهي كالمخاطب لنفسه: لا ولد ولا بنت! … يبقى إيه … فيه نوع ثالث جديد ما اعرفوش؟!

فأردت أن أوفر عليه مئونة العجب فبادرت قائلًا: هو في الحقيقة.

– آه مفهوم … مش ابن حضرتك.

– ابني؟! … طبعًا لا، مش ابني، دا جحش صغير.

– جحش؟ … آه … أنا آسف … لا مؤاخذة!

وظهر على الأجزجي الحرج وأسرع يحضر لي ما طلبت، وقدم إليَّ زجاجة كبيرة في طرفها ثدي من المطاط وقال: دي بزازة كبيرة تنفع لجحش كبير.

لا مؤاخذة!

فابتسمت وقلت له: العفو، لا داعي للمؤاخذة.

وأنقدْته الثمن … وخرجت أحمل «البزازة» عائدًا بها إلى الفندق … وصعدت إلى حجرتي … فوجدت بابها مفتوحًا … وذكرت أني تركته كذلك سهوًا عند ذهابي … واتجهت من فوري إلى الحمام، ففطنت إلى أني نسيت إغلاق بابه أيضًا قبل انصرافي …

وألقيت من فوري نظرة في أنحاء المكان فلم أجد أثرًا لصاحبي فأسقط في يدي ... وحرت في أمري ... أين وكيف اختفى؟ ... أتراه خُطف أم تسرَّب؟ ... وخرجت إلى بهو الطابق ... فإذا بي أسمع ضحكات رقيقة تنبعث من إحدى الحجرات ... فمشيت نحو الصوت ... فألقيت نفسي أمام حجرةٍ بابها مفتوح ... وأبصرت الجحش واقفًا أمام مرآة طويلة لخزانة ملابس يتأمل نفسه مليًّا، وإلى جانبه الغادة الشقراء تضحك عن ثغر يسطع نورًا.

لم أدرِ ماذا أصنع ... فلزمت موقفي أنظر ولا أنبس إلى أن حانت من الفتاة التفاتة شطر الباب، فرأتني ورأت «البزازة» في يدي ... فأدركت ونشطت نحوي تقول: عفوًا يا سيدي ... أهو ...؟

– نعم يا سيدتي ... هو.

وأومأت برأسي إيماءة تفصح عن صلتي بالجحش، فضحكت وأقبلت عليَّ تقول: لقد كاد يحدث ثورة في الطابق منذ قليل ولكنها ثورة لطيفة ... لقد جعل يسير في البهو بكل اطمئنان، ويدخل كل حجرة يجد بابها مفتوحًا، ويتجه توًّا إلى كل مرآة يصادفها، فيطيل النظر إلى نفسه ... لقد سمعت قاطن الحجرة المجاورة يلفظ صيحة دهش ... فقد كان أمام مرآته يعقد رباط رقبته وإذا هو فجأة يرى في المرآة أن بين ساقيه جحشًا ... قالت الفتاة ذلك وأغرقت في الضحك ... فضحكت أنا أيضًا ... ثم سألتها: وكيف استقر به المطاف في حجرتك؟

فأجابت: بعين الطريقة ... يبدو لي أنه انطلق من بين قدمَي الجار منفزعًا من صيحته، واتجه إلى بابي، فدخل عليَّ بغير استئذان، وتأمَّل صورته في مرآتي بغير أن يعيرني التفاتًا.

فقلت: يا له من أحمق! ... شأن أكثر الفلاسفة! ... يبحثون عن أنفسهم في كل مرآة ولا يعيرون الجميلات التفاتًا!

فابتسمت عن ثغرها البديع ابتسامة رضا ... وقالت وقد اتخذ وجهها هيئة الجد فجأة: حقًّا لست أدري ما شدة اهتمامه بهذا الأمر.

فقلت: لقد نسي فيما أرى شأن جسده وأنكر أمر «المادة» فهو لم يطعم شيئًا حتى الساعة.

فأشرت إلى «البزازة» في يدي: ألم تقدم له شيئًا من اللبن؟

– قدمت له ذلك فلم يعجبه.

وقصصت عليها ما فعلت، فضحكت مني كما ضحك السمسار من قبل ... وقالت: يبدو يا سيدي أنك لم تكن قط أبًا.

فقلت: صدقت فراستك يا سيدتي … ذاك أول عهدي بالأبوة! فمدت يدها نحو «البزازة» وقالت: إذا أذنت فإني أتولى عنك هذه المهمة … فإن المرأة على كلٍّ أحذق … بمثل هذا العمل وأجدر.

إنها منة عظيمة وفضل منك يا سيدتي … لا أنساه.

قلت ذلك وتركت لها الجحش وأداة إطعامه، وقدرًا من اللبن، أمرت بحمله إليها … وانصرفت إلى شأني حامدًا شاكرًا.

الفصل الثالث

كانت المهمة التي اقتضت ذهابي إلى الريف ذلك اليوم ثقيلة على نفسي على غرابتها … ولها قصة يحسن بي أن أوردها هنا تفصيلًا: كان ذلك منذ أسبوع، عصر يوم اشتد حره، فاستلقيت على مقعدي الكبير مستقبلًا باب الشرفة أستجدي بعض أنفاس نسيم عابر … وإذا جرس التليفون بقربي يدق فتناولت «السماعة» بيدٍ مسترخية، دون أن أتحرك من مكاني، وسمعت صوت عاملة التليفون المركزي بالفندق تصلني بصوت آخر في الخارج لرجل يتكلم الفرنسية ويعلن إليَّ أنه يطلب موعدًا للقائي.

فسألته عما يريد فقال إنه مندوب شركة للسينما وأنه يود محادثتي في شأن يتصل بهذه الأعمال … فضربت له موعدًا في مساء ذلك اليوم في بهو الفندق … فلما أقبل عليَّ، وجدت رجلًا في طور الشباب، أشقر الشعر، حليق الشارب أنيقًا رشيقًا حيَّاني في احترام … وجلس يحدثني في طلاقة ولباقة عن شريط سينمائي تُصور أكثر وقائعه الريف المصري، وتدور حوادثه في قرية مصرية، ويقوم بالكثير من الأدوار فيه الفلاحون أنفسهم دون الالتجاء إلى ممثل محترف من الممثلين المصريين، حتى يستوثق من صدق الصور … وأن يوضع كل ذلك داخل إطار قصة سينمائية قد تم وضعها بالفعل … وإن المتولي إخراج هذا كله والإنفاق عليه شركة سينمائية فرنسية … فقاطعته في رفق: وماذا تريدون مني بعد كل هذا؟

فقال: الحوار.

ثم أخرج من محفظة صغيرة يحملها نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة باللغة الإنجليزية ثم نسخة أخرى باللغة الفرنسية لسيناريو موضوع، قدَّمها إليَّ وقال: تسهيلًا للأمر اسمح لي أبسط القصة في كلمتين … وجعل يسرد لي حكاية طويلة عريضة لم أميز لها رأسًا من ذنَب … وأنا بطبعي غير قادر على الإصغاء إلى متكلم أكثر من خمس دقائق، أهيم بعدها

في وديان وأوغل في سُحب، وأنسى وجودي ووجود من معي ... إنه شرود طالما حال بيني وبين الاستمتاع بالمحاضرات القيمة ... وهو أحيانًا يفاجئني حتى في دور السينما والتمثيل ... بل وفي مطالعة الكتب.

ويخيل إليَّ أن الأصل في فكري أنه كالغاز الشائع يقتضيني دائمًا الجهد لجمعه وحصره ... فإذا توانيت قليلًا انفرط مني وعاد إلى حالته الأولى؛ لذلك لم أفطن للرجل أمامي إلا وهو يوجه إليَّ الكلام وقد فرغ من قصته فيما يظهر.

– موضوع طريف ... أليس كذلك؟

– جدًّا، جدًّا.

قلتها وأنا أبدي شدة الاهتمام ... على أن صوتي ما كان ينم عن تحمُّس، والواقع أني كنت في كل الوقت بعيدًا عن التحمس لأي شيء ... فقَيظ يونيو وعملي المضني طول العام الماضي، والأحداث التي صادفتني خلاله ... كل أولئك أنهك أعصابي، وجعل مني شخصًا لا يصلح إلا للاستلقاء على المقاعد، التفكير في البواخر، وإعداد برامج الصيف في أوروبا، اقتفاء آثار «توسكانيني» و«وبرونوفالتر»، لا ريب أن طلب هذا السينمائي كان يملؤني سرورًا لو تقدَّم به قبل شهرين ... فالسينما طالما أغرتني ... والعمل الذي يعهد به إليَّ أصنعه من غير شك بأطراف أصابعي ... فما حوار لسيناريو عدد صفحاته لا يربو على العشر، كهذه الصفحات التي يضعها الآن بين يدي! لكن ... من سوء الحظ ... أني كنت في ذلك اليوم على حال عجيبة لم أعهد نفسي على مثلها قط يومًا فلو طلب إليَّ طالبٌ أن أنفخ الهواء بفمي لضقت بذلك ذرعا ... ولقد تجمعت وقتئذٍ كراهتي وعدواني وانحصرت في شيء واحد اسمه: الكتابة وكل ما يحتاج إلى كتابة ... فكتابة رسالة طامَّة كبرى ... وكتابة بطاقة مصيبة نازلة ... وكتابة مقال قد تدفعني إلى ارتكاب جريمة ... فلما طلب إليَّ الرجل آخر الأمر رأيي في هذا العمل أجبته صراحة بأني آسف حقيقة لتعذُّر قيامي به ... فقد انتهى موسم عملي ... وقد حددت موعد السفر وانتهى الأمر ... فسألني الرجل.

– ومتى السفر؟

– في أوائل يوليو.

– حسن جدًّا ... ما زال أمامنا شهر، وهذا يكفينا.

– مهما يكن الأمر، فإني لا أظن في مقدوري أن أعِد بشيء ... وانفضَّ مجلسنا ... ولم يقنط الرجل وترك نسختَيه لأطالعهما، وهو واثق أن مجرد قراءتي القصة سيبعث في نفسي الرغبة في إنشاء الحوار وانصرف على أن يعود إليَّ فيما بعد، وحملت أنا أوراق

روايته فوضعتها حيث رقدت بما تحتويه من أبطال أبرار أو أشرار، ما أدري، رقادًا لم أوقظهم منه حتى وافاني الرجل في اليوم التالي يحادثني في أمرهم مرة أخرى، ويستفسرني بعض أحوال الريف ... وأنا أجيب إجابات مقتضبة حينًا، مسهبة حينًا آخر، ولكني في كل الأحيان كنت أخفي تبرُّمي تأدبًا؛ فالرجل ظريف ... وهو فيما رأيت حريص على إرضائي واستبقائي كلما أبديت له عذري ... فلقد عرضت عليه استعدادي لإحاطته بكل ما ينفعه من أخبار الريف على أن يكون ذلك أثناء محادثات كمحادثاتنا تلك، كلما سنحت لنا فرصة اللقاء ... أما إن ارتبطت بعمل أسأل عنه في ذلك الوقت، فهو موقف لا أحب أن أضع نفسي فيه ... ثم أشرت عليه أن يتصل بكاتب أعرف أنه ممن خبروا هذه الأعمال ... فتجهم وجه الرجل وقال: إن الشركة ذكرت اسمك بالذات.

– عجبًا!

قلتها وقد بدا على وجهي من غير ريب إلى جانب الدهش شيء كثير من الرضا ... فقال ... الرجل: إن هذه الشركة هي التي تولَّت إخراج الكثير من روايات «إميل زولا»، وناشر أعمال «زولا» هي دار «شاربانتييه» لأصحابها «فاسكيل وشركاه»، وهذه الدار قد نشرت قصة من قصصك ... هي التي دلتنا على عنوانك عندما جاء ذكر الاحتياج إلى كاتب مصري لوضع الحوار الريفي.

هنا بطُل العجب ... وذكرت فعلًا أني في أوائل ذلك العام جاءني بنفس الطريقة فيما يظهر، خطابان لشركتين فرنسيتين للسينما يطلبان منحهما حق اقتباس هذه القصة ... وكان وجه عجبي وقتئذٍ طريقة علمهما بعنواني.

– كل هذا جميل، ولكنه مع الأسف لا يغير من الموقف شيئًا.

قلت ذلك للرجل ... فأطال في وجهي النظر كأنما دار بخلده أني أتمنَّع لشيء في النفس ... ثم نهض وهو يرجو مني أن أفكر مرة أخرى في الأمر، وانصرف على أن يعود.

فلما عاد في اليوم التالي وجدت معه رجلًا آخر حسن الهندام قدَّمه إليَّ قائلًا إنه المتولي الأعمال المالية والإدارية الخاصة بهذا الفلم لحساب الشركة ... ثم أخرجا من المحفظة التي يحملانها خطابات وأوراق وقال لي الرجل الظريف: نسيت أن أذكر لك أن الشركة في باريس قد تعاقدت فعلًا مع الكاتب الفرنسي «...» على وضع الصيغة الفرنسية لحوارك ... ذلك أن حوارك بالطبع سيبقى على أصله العربي في نسخة الفلم العربية إذا صنعت نسخة عربية ... أما النسخة الفرنسية فإن «...» يضع صيغتها النهائية بعد أن نرسل له الترجمة الأولية، وها هي ذي صورة العقد الموقع عليه منه!

وقدَّم إليَّ الورقة فوقع نظري على رقم المبلغ الذي تقاضاه هذا الكاتب على هذا العمل فوجدته ثلاثين ألف فرنك ... ثم شروط أخرى استلفتت نظري من بينها هذا الشرط ... أن يعلَن عن اسمه على اللوحة الفضية بحروف في حجم حروف اسم المخرج ... فابتسمت لأمر هذا العالم الجديد عليَّ، العجيب بأفكاره ونزعاته ورغباته! ... ولم يمهلني الرجل ... فتناول من زميله ورقة أخرى قدمها إليَّ قائلًا: وهذا هو العقد الذي كنا نرجو أن يتم عليه توقيعك ... فنظرت في الورقة فإذا هو عقد متعدد البنود مضروب على الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية ... في أعلاه قد طُبع اسم الشركة وفي أسفله توقيع مندوبها المخوَّل له سلطة التعاقد ... ونظرت إلى المبلغ المرقوم ... فإذا هو يزيد زيادة ملحوظة عما قُرر للكاتب الفرنسي الذي لن يصنع شيئًا كثيرًا ... وقد روعي العدل في حجم حروف الاسم بيني وبينه؛ مما جعلني أبتسم مرة أخرى ابتسامة يخالطها شيء من العجب والرضا ... على أن الذي دعاني إلى التفكير قليلًا هو البند الأخير ... وفيه تعجل الشركة بقسط وافر من المبلغ يُدفع عند توقيع العقد ... هنا فقط بدأت أنظر إلى الأمر كله بعين الجد محدِّثًا نفسي: «ليس بيني وبين أن أقبض مائتين من الجنيهات إلا أن أضع إمضائي ها هنا؟! ...»

وعندئذٍ شعرت بسلطان المال ... وأدركت أن المال قدير أحيانًا على تقرير مصير الأشياء ... حتى في مسائل الأدب الفكر والفن ... نعم ولم لا ... لو لم تلوِّح إحدى دور الموسيقى في لندن لبيتهوفن بمبلغ خمسين جنيهًا لما وضع السانفونية التاسعة! ... إن لمن يكن الفنان محتاجًا إلى المال ليعيش فهو محتاج إليه أحيانًا ليُنتج ... فالفنان أحيانًا كالغانية يجب أن يؤخذ بوسائل الإغراء! ... إن المرأة إذا لم تحب من قلبها فلا بد من إغرائها ببريق الذهب ... والفنان إذا لم يتفجر ينبوع نفسه لغير شيء، فلا بد من طرقه بفأس من ذهب؟ ... إنها طبيعة غريبة لا علاقة لها بالطمع ولا بالجشع ولا بالرغبة في الترف ... إنما هي أحيانًا شيء يدخل في نطاق سر النفس الآدمية، إن قلب الفنان وقلب المرأة سيان كلاهما كنز مسحور إن لم يفتح من تلقاء نفسه لأول عابر فلا بد من أن يحرق أمامه كثير من البخور.

هذا وحده ما جعلني أحتفظ في يدي بالعقد طويلًا وأشعر في نفسي أني لن أدعه حتى أوقع عليه ... دون أن يخطر على بالي وقتئذٍ ذلك العمل الذي طُلب إليَّ أداؤه، ودون أن أفكر في قدرتي على إتمامه في ذلك الزمن المحدد ... ولم أكن مع ذلك في حاجة إلى ذلك المال ... ولم يكن قد مضت بعدُ عشرة أيام على قبض مبلغ آخر في موقف مثل هذا الموقف؛ فقد كان تاجر الكتب المعروف الحاج «...» يريد شراء كتب لي ... وكانت الممارسة في هذا الشأن دائرة منذ شهر بينه وبين المتولي شئون هذه الكتب، نعم ... فطبيعتي الكسلى قد صرفتني

حتى عن الاكتراث لهذه الشئون ... فانتهى الحال بي أن نصبت لنفسي شبه «قيِّم» يقوم عني بمسائل الطبع والنشر والتحصيل والبيع والشراء، وكل تلك التفاصيل التي حاولت عبثًا أن ألمَّ بها بعض الإلمام ... وقد عرف مني «ولي أموري» الصُّدوف عن هذه الأمور، فلم يعرض عليَّ حسابًا قط ولم أطلبه بحساب، فحسْبه أن يقدم إليَّ المبلغ الذي أريده، وقتما أريد، ولا شأن لي بالباقي فهو يعرف بعدئذٍ كيف يدبر الأشياء مع تجار الكتب والورق، إلى أن كان ذلك اليوم إذا تخطاه الحاج وجاءني مباشرة، فما كاد يقع عليه نظري حتى صحت به.

– الكلام والحساب مع محمد أفندي.

فوقف بجسمه الضخم، ملتفًّا في ثيابه الوطنية الطريفة طارحًا على منكبيه عباءته السوداء الثقيلة، ورمقني بعينيه الحمراوين اللتين لم أرهما قط يومًا في صحة وعافية، وقال لي في لهجته الشعبية الظريفة: سبحان الله! ... حد يا ناس فتح سيرة كلام ولا حساب؟!

صلي على النبي يا أستاذ ... واطلب لنا فنجان قهوة سادة!

فطلبت القهوة وجلس الحاج يتحدث في مواضيع لطيفة خفيفة، لا صلة لها بما جاء له من عمل ... والحاج محدِّث ظريف بارع، لا يملُّه السامع وإن كانت شهرته الغالبة أنه حاد الذكاء شديد الدهاء ... وهو يفخر أحيانًا بأنه رجل عصامي، استطاع بعمله وحده أن يجمع ثروة لا تقل عن الخمسين ألف جنيه وأن يسيطر بحسن تدبيره على تجارة الكتب العربية في العالم العربي كله؛ فهو يتحدث عن عملائه في السند والهند وسيلان وساحل الذهب والمغرب الأقصى والمشرق الأدنى حديث العارف الخبير ... وهو لا يجهل أن له الفضل في إيصال ثمرات قرائحنا إلى أدمغة الناس في تلك البقاع، وإدخال أدباء مصر وكتابها بلادًا ما كانوا يظنون أنهم داخلوها.

إنه نابليون الكتب، يفتتح الأراضي النائية ويقدم بجيوش صناديقه الضخمة وفي أثره الأدباء والعلماء حاملين ألوية الفكر الظافر.

لبث يحدثني عن أخبار حجه الأخير وما رآه في الحجاز ... والحاج يحج كل عام، ليسأل الله البركات ويسأل العملاء سداد الكمبيالات ... فهو يعمل لآخرته كأنه يموت غدًا ويعمل لدنياه كأنه يعيش أبدًا، ومضى في الحديث حتى أيقن أني قد غرقت في الإصغاء وشاهد على وجهي الرضا والابتسام، وأدرك أني قد نسيت كل شيء إلا ذلك الحديث الممتع ... عند ذاك دس يده في صدره وانتزع كيسًا كبيرًا ... جعل يُخرج منه أوراقًا مالية من فئة العشرة الجنيهات طفق يعدُّها بصوت مرتفع: عشرة، عشرين، تلاتين، أربعين، خمسين.

فأدركت مراده وصحت به في حدة وعنف: بتعمل إيه يا حاج! ... قلت لك الكلام مع محمد أفندي.

فلم يلتفت إليَّ، ومضى يعدُّ النقود وهو يقول: إن الله مع الصابرين يا أستاذ! ... ستين، سبعين، ثمانين، تسعين، ماية.

فخشيت سوء العاقبة فصحت صيحة مدوية: أرجوك يا حاج! ... أنت عارف أنا أكره الحساب ... فتركني أصيح كما شئت ومضى في إخراج الأوراق المالية وهو يعد: ماية وعشرين، ماية وتلاتين، ماية وأربعين، وخمسين، ستين، تمانين، تسعين، مايتين.

فلم أدرِ ماذا أفعل، وجعلت أتظاهر بعدم الاهتمام وقلة الاحتفال لما يصنع، ولكن عينًا من عينيَّ كانت تغافلني وتلمح النقود على الرغم مني، وأذنًا من أذنيَّ ما كان يفتها صدى صوته المرتفع بالعد ... وكان كلما مضى في العد بعد أن جاوز الرقم المائتين أحسست أن مقاومتي تخور، وأن ثائري يهدأ، وأن أعصابي تلين حتى سمعت صوته يقول «مائتين وسبعين جنيه خذ عدهم مرة ثانية» ... ولمحت الكيس في يده كاد يفرغ إلا من بضع ورقات يريد أن يضن بها، ويمنع أصابعه من أن تبرزها.

فما تمالكت نفسي وأقبلت عليه بكل قواي ... واختطفت يده مع الكيس، بأصابعه المدلاة فيه، وصحت: قسمًا بالله العظيم ما تخرج من هنا ومعك صنف الفلوس!

وأفرغت ما كان في الكيس بين يدي ... فوجدت فيه ثلاث ورقات أخريات وعددًا من النقود الفضية ... فصاح بي: طيب بس يا أستاذ ... اترك لي أجرة العربية الحنطور.

– أجرة العربية الحنطور تلاتة صاغ!

ودفعتها إليه وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله!» وأخذ مني رسالة إلى «محمد أفندي»، يتسلم بها ما يطلبه من الكتب.

وذهب، ثم مضى يومان، وإذا «محمد أفندي»، يجيئني ساخطًا ثائرًا صائحًا: هو الحاج عملها؟

– عمل إيه؟

– كتب ثمنها أكثر من خمسمائة جنيه يشتريها تقريبًا بنصف القيمة!

ثم جعل يقص عليَّ خبر مفاوضاتهما السابقة ... ويقول إنه رفض أن يعطيه ما أخذ بأربعمائة جنيه ... وطفق «القيم» يأسف لإصغائي إلى الحاج ... ولإهمالي الرجوع إلى رأيه قبل إبرام مثل هذا العقد، وحرَّكته الغيرة على عمله، وهو رجل أمين، وهزته الشفقة بي، وهو يعلم أني أقضي في أموري بعواطفي وهي تناقض المصلحة ... فجعل يردد كالمجنون: مستحيل! ... نصف القيمة شيء مستحيل!

فطفقت أنظر إليه وأبتسم … وأردت أن أهوِّن عليه الأمر فقلت: صحيح مستحيل! … لأجل أن تعرف أني أقدر أحيانًا أصنع المستحيل!

فقال محتدًّا: حضرتك ولا مؤاخذة تعرف تكتب الكتب فقط … اعمل معروف يا أستاذ، خليك للتأليف لا غير.

فضحكت وهدأت من روعه. وأبديت له عذري وحجتي، ووصفت له الضعف الذي دهاني أمام براعة الحاج … فهو قد خدَّر أعصابي بتلك الأوراق التي جعل يخرجها من الكيس على مهل أمام عيني كما يخرج «الحاوي» الماهر، من كيسه تلك التعاويذ التي يخدر بها أعصاب الثعابين.

الفصل الرابع

أمضيت العقد وقُضي الأمر ... وجعل ذلك الرجل الأشقر الأنيق يختلف إليَّ كثيرًا ... ولم أعرف على وجه التحقيق وظيفته في ذلك العمل ... فهو كما فهمت مخرج ذلك الشريط أو المنوط به إدارة أعماله الفنية ... وعلى هذا الاعتبار، رأى أن أخصص له وقتًا نجتمع فيه فحددت له بين الرابعة والسادسة من عصر كل يوم، وهو الوقت الذي يذهب عادة في الاستلقاء على المقعد الكبير ... فكان يأتي في هذا الموعد، ونتجاذب حديثًا بسيطًا هينًا في شئون القرية المصرية ... أساهم فيه بنصيبي من الكلام وأنا بين النوم واليقظة ... فقد كنت قد دعوته إلى الاجتماع في شرفة حجرتي حيث النسيم ينشط الفكر بدلًا من بهو الفندق وقاعات استقباله حيث يشتد الحرُّ في تلك الساعة ويقل الهواء ... وبهذا كنت ألزم مقعدي ولا أغير عادتي ... على أن فتوري كلما بدأنا الكلام في مسألة الحوار لم يتغير ... وجهلي المطبق بتفاصيل القصة التي سُردت عليَّ مرارًا لم يبرح، وكسلي عن مطالعة «السيناريو» حتى النهاية لم أجد له دواءً ... ومضى أسبوع على هذه الزيارات والأحاديث ... ولم تصنع شيئًا ... وخجلت آخر الأمر من موقفي ومن ظرف المخرج وصبره، فقلت له ذات مرة، وأنا أغالب إغفاءةً دهمتني في يوم قيظ وهو أمامي يحلل لي شخصية بطل من أبطال قصته: أرجو المعذرة ... إنك لا شك قد يئست مني ... كما كدت أيأس من نفسي!

فأجاب في ابتسامة: أنا أيأس؟! ... المخرج الذي ييأس لا ينبغي أن يسمى مخرجًا ... ما صناعة السينما إلَّا صبر طويل ... كلا لا تخشَ شيئًا ... إني لن أيأس منك، كل ما في الأمر أني محتاج إلى شيء من الوقت ... إن المخرج يجب أن يبدأ دائمًا بنسج الجو الذي يغمر فيه ممثليه وأعوانه ... ينبغي أن يسير بهم خطوة خطوة إلى عالم القصة وزمانها ومكانها ... ثم عليه بعد ذلك أن يُخضعهم خضوعًا خفيًّا إلى إرادته، كما يحدث في التنويم المغناطيسي.

فقلت له وأنا أتثاءب على الرغم مني.

– حقيقة، ها أنت ذا منذ أسبوع تأتي كل عصر لتنومني!

فالتفت إليَّ في الحال وقال باسمًا: تقصد أي نوع من النوم؟!

– معذرة … إن قصدي بالطبع.

– لا بأس … لا بأس.

– قالها ضاحكًا ثم مضى يقول: قد ننشط أكثر من ذلك لو تركنا هذه الحجرة ووضعنا أنفسنا في المكان الذي ينبغي أن تدور فيه القصة.

ثم أخبرني أنهم قد تخيروا بالفعل قرية صغيرة في طريق البدرشين على بعد نحو نصف ساعة بالسيارة من القاهرة.

وأنهم استأجروا فيها منزلًا جميلًا من طابقين يملكه أحد الأعيان، وهو الآن خالٍ … وقد أرسلوا من أعدَّه إعدادًا مقبولًا حتى يصلح مركزًا عامًّا لأعمال الشريط في الريف، وقال إنه لا بد له من أن يقيم هو نفسه أكثر أيام الأسبوع في ذلك المكان حتى يغمر نفسه في جو الريف، وينتقي مواقع القصة، وينتخب الأشخاص الصالحين من بين الفلاحات والفلاحين … ويجري أبحاثه التمهيدية الخاصة بزوايا التصوير … ثم ختم كلامه قائلًا: لو رافقتنا ولبثت معنا في هذه القرية.

فما تمالكت نفسي … وقلت من فوري: هذا محال … لدي عملي في القاهرة ولا أستطيع التخلف يومًا.

فأطرق الرجل أسفًا … ثم أراد أن يجد لذلك حلًّا فعرض أن يجعل سيارة تأتي وتذهب بي إلى القاهرة كل يوم … عليَّ أن أمضي معهم هناك أكثر الوقت … وجعل يؤكد لي أن أسباب راحتي في ذلك المنزل الريفي موفورة … وأنهم خصصوا لي أجمل الحجرات وذكر لي أن مصور «الكاميرات» وزوجته مقيمان في ذلك المنزل منذ استئجاره وأنهما سعيدان كل السعادة في ذلك المكان.

ومضى في ذلك القول … وأنا لا أريد أن أسمع ما يقول … فإن ذكر الريف والمبيت في الريف يزعجني منذ أن قضيت فيه أعوامًا لا تُنسى من حياتي … إن الصور التي أحملها لحياة الريف مؤلمة أشد الألم … ولئن كنت قد أحببت كثيرًا روح الريف البريئة ونفس الفلاح السمحة الكريمة … فإني كرهت وأكره مظاهر الريف القبيحة وحياة الفلاحين القذرة … فقلت للرجل: لا … لا لزوم لوجودي معكم … يكفيني نسخة القصة أمامي … وأنا أضع حوارها ها هنا على مكتبي … ولكن الرجل مضى في إطراقه … وأدركت من موقفي أن شيئًا

آخر غير الحوار يعنيه من أمري وأمر وجودي بقربه دائمًا: هي تلك المعلومات والتفسيرات لأرض وناس يجهلهم، والمشورة الخبيرة التي يظن أني أستطيع أن أمده بها في كل مرحلة من مراحل هذا العمل ... ولقد انتهى به الأمر أن أشار إلى ذلك إشارة صريحة، وحزن لموقفي ... وطلب إليَّ أن أعينه في عمله بقدر ما أستطيع ... لا للاتفاق الذي يربطني بهم، بل للفن، وللصداقة التي بدأ يحسها نحوي ... فأثر قوله في نفسي وطفقت أفكر فيما يمكن عمله، فعرضت عليه أن أمضي ليلة الجمعة وصباح الجمعة من كل أسبوع معهم في ذلك الريف ... وأن يراسلني أو يخاطبني بالتليفون عن كل ما يعنُّ له خلال الأسبوع، فقبل ... وسألته عن موعد الرحيل.

فقال: إذا شئت فمن الخميس المقبل.

أي في عصر ذلك اليوم الذي قابلت فيه الجحش ... وهكذا خطر لي أن أصحب معي ذلك اليوم إلى الريف ذلك الرفيق الصغير.

الفصل الخامس

تركت الجحش مع الغادة الشقراء مطمئنًّا واثقًا أنه قد وُضع بين يدين رحيمتين رقيقتين، أتمنى لو أوضع أنا نفسي بينهما ... على أني غاليت بعض الشيء ودفعني بغضي لتحمل التبعات، فوطنت العزم على الهروب من وجه الفتاة حتى موعد الرحيل في عصر اليوم، خشية أن ترد عليَّ وديعتي قبل ذلك ... فأضطر إلى حمل همها، وأنا أضيق بحمل هموم نفسي ... فتركت الفندق ... ورأيت أن أتغدى في مطعم بالمدينة ولا أعود إلا في الوقت المناسب.

ووافت الساعة الثالثة فآويت إلى حجرتي، وما كدت أستقر في مقعدي حتى دق التليفون يعلن قدوم المخرج، فدعوته إلى الصعود، فصعد، وإذا هو في ملابس الرحلات: ذلك البنطلون الكاكي القصير والقميص القصير الأكمام، والقبعة الكبيرة المصنوعة من الفل ... وابتدرني قائلًا: كل شيء مهيأ للرحيل ... والسيارة على باب الفندق في الانتظار.

فنهضت ونظرت إلى هيئتي في المرآة وقلت: منظري بينكم هكذا كالنغمة «النشاز»!

– اصنع مثلي!

– أين لي الآن بهذا الزي.

– تشتريه في الطريق.

– هلم!

وحملت في الحال حقيبتي الصغيرة وكنت قد عددتها وجهزتها في الصباح بما أحتاجه لقضاء ليلة في الخارج وقرعت الجرس أطلب خادم الطابق للنزول بها ... فما إن حضر حتى ذكر لي أن الآنسة الشقراء قد قلبت الفندق رأسًا على عقب بحثًا عني.

وأنها تسأل عن حضوري في كل لحظة ... فأدركت السبب ... والتفت من فوري إلى المخرج قائلًا: لو سمحت أن أصطحب معي صديقًا عزيزًا.

فأجاب المخرج وكان قد سمع الخادم يذكر كلمة «المدمزيل».

– بالطبع ... إن حجرتك في منزل الريف تتسع إذا شئت لسريرين!

وابتسم ابتسامة ذات مغزى ... ففطنت لمراده ... ووجمت قليلًا ... ثم بادرت أقول: يحسن بي فيما أظن أن أقدم إليك هذا الصديق ... ثم استأذنته لحظة في الذهاب إلى الحجرة المجاورة ... فجلس في المقعد الكبير ينتظر عودتي ... واتجهت مع الخادم إلى حيث الغادة ... فطرقنا بابها في رفق ... ففتحت ... وما إن رأتني حتى صاحت بي باسمة: أخيرًا ظهرت! ... لقد كدت أيأس من ذلك الرجل العجيب الذي ترك لي جحشه واختفى!

– معذرة يا سيدتي ... إنما أردت أن أمتع جحشي بعطفك أطول وقت ممكن!

فابتسمت وقالت في قلق وحزن: لم أستطع مع الأسف أن أصنع له شيئًا ... وقد سألت عنك لأخبرك أنه رفض كل الرفض أن يشرب اللبن بهذه الطريقة أيضًا ... لا بد فيما أرى من أن يرضع من ثدي حمارة ولدت حديثًا ... إني أرثي لهذا المسكين! ... إنه سيموت حتمًا من الجوع إن لم يُتدارك الأمر سريعًا.

فقلت من فوري: سأدبر له ذلك في الريف ... ومن حسن الحظ أنَّا سنرحل الساعة.

قلت ذلك وأنا أبحث بعيني عن الجحش، فأبصرته كما تركته أمام مرآتها الكبيرة يتأمل نفسه دائمًا ... في صمت، تأملًا عميقًا ... فقلت لها: أتأذنين لي في الانصراف بهذا «الفيلسوف»!

فقالت باسمة: حقًّا ... يا له من فيلسوف!

فقلت وأنا أتقدم إليه: أشكرك يا سيدتي بالنيابة عنه ... وبالأصالة عن نفسي على حسن ضيافتك ... وأخشى أن يكون قد أثقل عليك كما يثقل الفلاسفة أكثر الأحيان على الغيد الحسان.

فقالت وهي تسلمني زمامه: على النقيض، لقد قضيت في صحبته وقتًا لطيفًا.

«جود باي»!

وأشارت بيدها إشارة وداع ظريفة للحيوان الصغير ... وتركتها، ودخلت به على المخرج قائلًا: أقدم إليك صديقي.

فنهض الرجل في الحال والتفت فوجد الجحش ... فدهش ثم ابتسم، ثم ضحك مسرورًا معجبًا ... وأقبل عليه يمسح رأسه الصغير بكفيه ... ويقول: مرحبًا به من رفيق! ... لا شك أنه مصدر وحيك.

– أرجو ذلك.

– أطوارك تدهشني ... ما اسمه؟

– لم أطلق عليه بعدُ اسمًا من الأسماء … لكني أحب لو دعوته «الفيلسوف»، فصاح الرجل: أصبت؛ ما من اسم يصلح له حقًّا غير هذا … هلم أيها «الفيلسوف»!

وأراد الخادم أن ينزل به من سلم الخدم فأبى المخرج إلا أن ينزل معنا … وقاده بنفسه وتقدمنا به إلى المصعد وهبطنا به إلى بهو الفندق أمام الجميع … واخترقنا المكان إلى الباب الدائر وأعين الحاضرين ترمقنا في عجب شديد … ولمَحنا مسيو «…» المدير فلم يصدق عينيه: جحش يسير على رخام بهو الفندق … هذا محال … ولم يدرِ ماذا يصنع … فعاجلته بابتسامة وعاجله صاحبي بابتسامة وانحناءة، والتفت إليه الحاضرون من سادة وسيدات في ابتسام وضحك وسرور.

فما تمالك المدير أن ابتسم مثل الجميع … وأسرعنا نحن إلى الخروج … فوجدنا سيارة كبيرة فيها سيدة في مقتبل العمر رشيقة مليحة، لكنها تضع على عينيها منظارًا ويدل مظهرها على النشاط وحب المخاطرة والرغبة في الانصراف إلى العمل … وهي ترتدي ثياب الرحلات … ثم رأيت في مكان القيادة من السيارة شابًّا مفتول العضلات، قوي الجسم، في ملابس الرحلات أيضًا … قدمهما إليَّ المخرج قائلًا إنهما مساعداه … وقد استقبلانا بالترحاب وخصَّا بعنايتهما «الفيلسوف» حتى كدنا نحن نهمَل إهمالًا مهينًا … وأفسحت «المساعدة» مكانًا أمامها للرفيق الصغير، فوقف في ذلك المكان من السيارة وأطل برأسه خارجًا … واتخذ كل منَّا مقعده» … وانطلقنا حتى بلغنا شارع فؤاد … فوقفنا أمام متجر كبير، أبتاع منه ملابس كملابسهم … ونزلت فاشتريت ما أردت وعدت فوجدت الزحام شديدًا حول السيارة، والمارة متكدسين في حلقة كبيرة ينظرون إلى الجحش وهو يطل عليهم برأسه.

وجاء عسكري المرور فشتَّت شمل الناس، وأنقذنا منهم وصاح فيهم: يالله يا جدعان انفضوا! … جرى إيه؟ … عمركم ما لقيتم حمير راكبة أوتمبيل؟!

فالتفتنا إليه من قلب السيارة وقلنا: متشكرين!

وانطلقنا إلى الجيزة ثم إلى الطريق الزراعي المتجه إلى البدرشين.

الفصل السادس

لم يكن سيرنا متصلًا … فلقد كنا نقف في الطريق لحظات، كلما استرعى التفاتَ المخرج منظرٌ طريف … وقد راقته كثيرًا شجرة جميز ضخمة يجري في أصلها جدول يسبح فيه بط وإوز، فأخرج آلة تصويره وسجَّل هذه الصورة قائلًا إن هذا المكان خير إطار وضع فيه موقف من مواقف القصة حيث يلتقي البطلان أمينة الفلاحة ومهدي الفلاح … فقلت له إن هذا المكان بعيد عن القرية التي ينبغي أن تقع فيها الحوادث … فقال: وماذا يهم … إنا نلتقط مناظرنا حيث نشاء ثم نلصقها فيما بعد حيث نشاء من الشريط.

– ولكن هذا مخالف للحقيقة!

– هذا بالطبع مخالف للحقيقة الجغرافية إذا شئت، ونحن فيما أظن فنانون لا مهندسو مساحة، وكل ما يعنينا هي الحقيقة الفنية.

صدق هذا الرجل … إن الحقيقة الفنية هي وحدها التي يجب أن تعني الفنان … وهذه «الحقيقة» كل قوامها تخير الصور وتنسيقها تنسيقًا يؤدي إلى ظهور المخلوق الفني الكامل، ذي الطابع الفريد والشخصية المستقلة والروح الجديد … ولا يهم بعد ذلك كيف جمعت العناصر … وخطرت لبالي عند ذاك كلمة «موليير» إذ اتهموه بجمع مواد أكثر قصصه ممن سبقوه أو عاصروه من قصاصين … لقد أقر بذلك … لكنه قال: «إني آخذ ما ينفعني حيثما وجدته» … وذكرت ذلك لصاحبي فقال: إن هذه الكلمة بدون ريب شعار كل مخرج.

– وكل فنان على الإطلاق … من روائي وموسيقي ومصور ومثَّال وسينمائي إلخ … لأن فيها يستقر معنى «الحقيقة الفنية».

ومضينا نتحدث هكذا، حتى أشرفنا على القرية التي إليها نقصد … وهي تقع على يسار هذه الطريق الزراعية التي نسلكها … وقد شاهدناها عن بعد يكاد يخفيها النخيل

... وعرجت السيارة ثم هبطت ممرًّا ضيقًا من الأرض يوصل إلى القرية ... وسارت على مهل بين أكوام السماد والقذارة ... وطلعت علينا الكلاب نابحة كما طلعت أسراب الصبية من صغار الفلاحين في أطمارهم وذبابهم الذي يأكل أهداب عيونهم ... ووقفت السيارة في مكان لم تستطع بعده تقدمًا؛ فقد ضاقت المسالك ... ولم تتسع إلا للقدم العابرة ... فهي حارات ملتوية بل دهاليز بين مساكن كأنها أوكار الوحوش ... ونزل الجميع ... وألفينا في استقبالنا مصور الكاميرا وزوجته مع بعض الموكلين بأمر المنزل من عمال الشركة والخدم ... فحملوا الأمتعة الخفيفة التي معنا ... وأنزل الجحش بعناية الآنسة المساعدة وأشرافها.

فبادرت أسأل عن وجود حمارة ولدت حديثًا في القرية ... فقال أحد الصبيان المجتمعين: عند ابويا سعداوي حمارة والدة!

– فين هو سعداوي!

– جارنا.

فنظرت مليًّا إلى هذا الصبي الشاحب الهزيل وذكرت ما قاله أحد أطبائنا الباحثين: ما من صبي في ريف مصر لم تنهش جسمه الأنكلستوما والبلهارسيا ... وهذه العلل بالذات لها فعل يصيب العقل أيضًا ... فيهبط مستوى الإدراك ... وتنطفئ شعلة الذكاء.

ولم يعر خدمنا كلام الصبية التفاتًا ... فقد رأوا أن يحملوا الجحش إلى دار العمدة وهو يصرف الأمر، وقد كانت جهة الإدارة قد أوصت العمدة بالضيوف الأجانب خيرًا ... ولقد علمت أن مأمور المركز ومعاونه قد علما أننا حاضرون اليوم فأخطرا العمدة بعزمهما على المجيء للترحيب بنا ... ولكن المخرج الفطن أدرك مرادهما فقال لي باسمًا: إنهما لا شك يحسبان أننا سندير أعمال الشريط ونلتقط تمثيل الممثلين ... فأرادا ألا تفوتهما فرصة المشاهدة! ... وتركنا السيارة في حفظ بعض الخفراء النظاميين وسرنا في تلك الأزقَّة والدهاليز ... بين تلك الدور، يتبعنا الصبية المرضى، والكلاب الجربى، ويقف لمرورنا الرجال المنهوكون الجالسون، يجرعون الشاي الأسود على المصاطب ... وتطل من خلف الأبواب رءوس النساء المعفرة بدخان الأفران وهن يخفين أسفل وجوههن بطرحهن السوداء ... وأشرفت علينا فتيات الريف وحسانه من فوق الأسطح وقد تلطخت أكفهن بروث البهائم وانشغلن بنا قليلًا عن صف «الجلة» ... إنه الريف القذر الذي أعرفه دائمًا ... ولا فائدة ترجى منه ولا شيء اليوم غير الأسف والحسرة والمرارة ... وندمت على المجيء ... وغمرتني الكآبة ... والتفت إلى زملائي فوجدت البِشر والسرور والإعجاب يطفح من وجوههم والمخرج يهز رأسه ويقول لمساعدته: انظري ... جميل ... بديع ... كل هذا جميل حقًّا وبديع!

فجعلت أحملق في عيونهم المفتوحة الدهِشة، ثم إلى مرامي أبصارهم ومواضع هذا الجمال والإعجاب والإبداع الذي يقولون عنه ... فما وجدت شيئًا واحدًا يجوز أن يطلق عليه نعت من هذه النعوت ... وأبصر المخرج فتاة قذرة تخرج من بين الطين وحطب الأذرة فوق سطح إحدى الدور وقد خرجت معها قطة ضالة نافرة ... وكلاهما قد أصاب وجهه الطين والقذر ... وكلهما قد بدت عليه مظاهر المخلوقات الدنيا ... فسدد الرجل آلة تصويره إلى هذا المنظر راضيًا مسرورًا ... فقلت له حانقًا: أهذا شيء جميل.

فصاح: بلا شك.

– هذه المخلوقات المسكينة القذرة؟

– إنها أجمل «فنيًّا» من مخلوقات ترتدي ثياب السهرة في حفلة راقصة بقصر بطرسبرج الإمبراطوري!

– «الجمال الفني»!

– بلا شك.

– الحقيقة «الفنية» لا علاقة لها كذلك بنظافة ولا قذارة ولا فضيلة ولا رذيلة، ولا تأخر ولا حضارة!

– بلا شك.

لم أرد أن أمضي معه في حديث من هذا الطراز ... فلزمت الصمت ... واكتفيت بأن أراقبه وألاحظ كيف ينظر إلى الأشياء ... ولقد عجبت حقًّا أول الأمر لأسلوب تفكيره ... إنه لا يتصور الأشياء بعقله ... ولا يفكر بذهنه ... إنما يتصور ويفكر بعينه، حاسة البصر عند هذا المخرج هي كل شيء على وجه التقريب ... لقد مررنا «بجرن» قامت فيه أكوام من القمح ووقف فيه فلاحان كل منهما يحمل «مدرة» يدرسها في كوم القمح ويرفعها في الهواء ليفصل الحب عن «التبن» فيتناثر التبن في الفضاء تحت وهج الشمس فيُحدث صورة، التقطتها عين الفنان السينمائي فصاح معجبًا: مطر من الذهب!

فنظرت كما نظر ... فإذا أنا أرى حقيقة أن «المدرة» في يد الفلاح تثير في الفضاء شيئًا كأنه الدنانير المتساقطة ... وسجَّل صاحبي هذا المنظر بآلة التصوير وهو يقول لي باسمًا: إذا أردت أنت أن تعبر بقلمك عن هذا المعنى فإنه تكفيك «عبارة لغوية» قوامها الكلمات ... أما أنا فأحتاج إلى «عبارة سينمائية» قوامها المرئيات! ... وهذا هو الفرق بيني وبينك!

وأعجبني قوله ... فسكت ... وجعلت أفكر لنفسي وأقول: لو أننا نحن الكُتاب نستخدم أبصارنا، بل كل حاسة من حواسنا، هذا الاستخدام، فأي صور وأي حقائق يمكن أن

نبرزها للناس ... ولكن الكتابة في نظر أكثر الكتاب عبارات لغوية جُمعت في خزانة الذاكرة ليستخرج منها وقت اللزوم ما يؤدي إلى مجرد الإبانة عن القصد ... ينبغي أن يكون الكاتب موهوبًا حقيقة، ليتطلب من الكتابة شيئًا أكثر من ذلك ... من هذه الناحية أفادتني صحبة المخرج ... وشعرت لأول مرة بالرضا عن هذه الصحبة.

وبلغنا أخيرًا المنزل الذي أُعدَّ لنا ... فإذا هو قائم وسط بيوت الفلاحين، كما يقوم العمدة الموسر بعض اليسر بين رجاله العراة، دون أن يتميز عنهم كل التميز من حيث الذوق والطبيعة والإدراك ... فهذا المنزل رحب ضخم من طابقين، وهو مبني بالطوب الأحمر ومطلي بطلاء في لون الفستق ... ونوافذه واسعة مشبكة بالحديد، وجدرانه سميكة وسقوفه عالية وحيطان حجراته منقوشة بالزيت نقشًا ينم عن السعة والترف ولكنه مع كل هذا غاية في سقم الذوق وسوء التفصيل والرسم والتخطيط ... فلا حديقة صغيرة تحيط به ... ولا مدخل رحب يستقبل الداخلين من بابه العريض ... ولا حمام مجهز بالأدوات الضرورية ... إنما يمر الداخل في شبه دهليز مظلم ضيق عن يمينه ويساره تلك الحجرات الواسعة العالية السقوف التي أنفق في نقوشها الأموال ... إنه منزل يشعر زائره بأن صاحبه غني الجيب فقير الروح ... ولقد انقبض صدري منه ... وضاقت نفسي ... وقادوني إلى حجرتي وهي خير الحجرات، وقد وضعوا فيها أثاثًا خفيفًا مما يستعمل في الرحلات ... غير أني وجدت نوافذها كأغلب نوافذ المنزل تشرف على أكوام سماد تتصاعد منها الروائح الكريهة ... وانفردت في حجرتي أخرج من الحقيبة الصغيرة بعض ما أحتاج إليه ... وكانت الشمس قد غربت ... وبدأ الظلام يضيف إلى كآبة البيت كآبة جديدة ... وجعل الخدم يوقدون المصابيح ويعدون المائدة للعشاء ... ولكن المخرج وأعوانه ما زالوا يعملون، فلقد سمعت صوت الضرب على الآلة الكاتبة يأتي من إحدى الحجرات البعيدة ... لكنهم لم يريدوا إزعاجي، إلى أن حان وقت العشاء ... فدعوني إلى مائدة نصبت فوق سطح المنزل ... فقد كان الحر داخل البيت شديدًا ... والبعوض قد ظهر وتكاثر ... فجلسنا إلى مائدة عليها بعض تلك الزهور البرية التي تنبت في الغيطان، جمعتها ونسقتها زوجة المصور، مستعينة ببنات ريفيات نظفنهن وهيأنهن ... وانكشفت لأبصارنا سماء الصيف الصافية ... وكان القمر طالعًا في تمامه ... والنسيم يهب بين حين وحين رقيقًا رفيقًا ... وجلست في رأس مائدتنا زوجة المصور صاحبة الفضل في تنظيم هذا البيت المهجور ... وجلست إلى يمينها الآنسة المساعدة وقد خلعت عويناتها فظهرت عيناها الخضراوان جميلتين براقتين في ذلك الليل كأنهما عينا القطط وقد خلعت ثياب الرحلات وارتدت ثوبًا

نسائيًّا لطيفًا ... فأكلنا أكلًا بسيطًا ... لكنه لذيذ هنيء ... وقضينا لحظات ممتعة، دار فيها الحديث حول «الفيلسوف»، فقد قالت زوجة المصور.

– أرجو أن يكون هو أيضًا قد تناول عشاءَه مريئًا!

فقلت: لا شك عندي في ذلك ... فالعمدة لن يعجز عن إيجاد حمارة والدة تعيره شيئًا من الغذاء المادي والمعنوي، بقليل من اللبن وقليل من الحنان!

وقال المخرج: خطر لي فكرة: هي أن نستغل «الفيلسوف» للدعاية والإعلان.

فقلت باسمًا: آه ... هذا حقًّا هو الذي كان ينقص «فيلسوفنا»؛ أن يستغله المستغلون، كما يُصنع عادة بالفلاسفة! ... لكني لست أرى مبادئه وآراءه التي يجوز أن تكون محل استغلال، إنه فيما أعلم فيلسوف صامت، قد حبس في صدره إلى الأبد كل ما عنده من كلام.

فقالت الآنسة ضاحكة: يكفينا منه صورته!

وقال المخرج: نعم ... صورته الرزينة الوقورة ... نسيت أقول لك إن الآنسة «...» يقع في اختصاصها أيضًا هذا الباب ... فهي التي تعد وسائل الإعلان باللغات المختلفة وتتولى إرسالها إلى مجلات السينما في العالم ... ولقد كان صاحبي يعرض عليَّ حقيقة، عندما كان يختلف إليَّ في الفندق، أعدادًا من مجلات مصورة خاصة بالسينما تصدر في أوروبا وأمريكا فيها ذكر أعمال الشركة ومشروعاتها ... ومن بينها أخبار ذلك الفلم الذي يعدُّه واسم المتولين إعداده، ومضى يقول: نعم ... أرجو من المدموازيل أن توفق إلى استثمار ذلك ... ولنساعدها الآن ولنفكر معها قليلًا: ماذا نقول؟ ... آه ... فلنقل مثلًا إن هذا الجحش هو الملهم الموحي لمؤلف الحوار ... وإنهما لا يفترقان مطلقًا ... ثم نلتقط لكما صورة معًا.

فقلت: حقًّا ... ما أجملها دعاية لمؤلف الحوار! ... أن يذاع أن وحْيه لا يهبط عليه إلا من حمار!

فضحكوا جميعًا، والتفتت إليَّ زوجة المصور قائلة: كلا يا سيدي، بل سيفهم من ذلك أنك ممن يحبون الحيوان.

أما هذا فصحيح ... نعم ... أحبها كثيرًا، وآسف أن طبيعة حياتي المتنقلة الآن لا تسمح لي باقتنائها والعناية بها ... فأنا نفسي اليوم في حاجة إلى من يقتنيني ويُعنى بي؛ لهذا أكتفى بمشاهدتها والنظر إليها ... إنني لأسر دائمًا سرورًا عظيمًا كلما مررت في الطريق بقرد صغير مع قرَّاد ... ولا أنسى ذات صباح رأيت فيه قردًا جالسًا مع صاحبه بباب مطعم وقد وضع بينهما طبق به فول وزيت، فجعل الرجل يأكل لقمة ويطعم قرده لقمة كأنهما أب وابن.

فقالت المرأتان معًا: هذا بديع.

فقلت ماضيًا في الكلام: حقيقة، ولقد بدا من اهتمامي بالقرود في شوارع القاهرة أن عرفني القرادون ... فما يكاد أحدهم يلمحني سائرًا حتى يسرع نحوي صائحًا في قرده: «سلم على سيدنا البك! ...» فيقف القرد على قدميه كأنه إنسان ويرفع يديه إلى رأسه بالتحية ... فأنفحه قرشًا، وأوصى صاحبه أن يشتري له فولًا ... على أن أحَب المناظر إلى عيني منظر القرد الصغير وهو يمتطي العنزة ذات البردعة الحمراء والكلب ذا الجلاجل وانتقاله بينهما من ظهر إلى ظهر، كأنه السيد المدلل، الذي لا يجوز له المشي والمطايا حاضرة.

فضحك المصور وقال: صورة جديرة بالالتقاط!

فقلت له: الأجدر منها منظر تلك الأسرة العجيبة وقد صادفتها يومًا في أحد الشوارع، حطت رحلها بالقرب من صندوق للقمامة ... وقد ظهر عليها الجوع والإعياء وبدا عليها الشقاء ... ونبذها الناس ... ولفظها المجتمع ... ولم يعرف لها أحد حقًّا من حقوق الحياة ... فلجأت إلى قارعة الطريق ... ولم يبقَ فيها سيد ولا مسود ولا آمر ولا ناهٍ.

شُغل كلٌّ بنفسه ... فجلس صاحبها القرفصاء يبحث في القمامة عن قشور البطيخ وفتات الخبز وفضلات الطعام ... وتفرق أفراد الأسرة، كل فرد في ركن يخرج بيده أو بفمه أو بنابه، على حسب نوعه في الحيوان، ما يملأ جوفه الخاوي ... واندست بينهم القطط الضالة والكلاب الهائمة، تطلب هي الأخرى حقها في هذه الوليمة المباحة ... وطعم الجميع، وقد ساد بينهم سكون وسلام وإخاء، أثر في نفسي، فتقدمت إلى القراد وألقيت في كفه قطعة فضية صغيرة، فما صدق المسكين عينيه.

ووثب في الحال على قدميه، وصاح في أسرته صيحة تبشرهم بالفرج وتدفعهم إلى الأمل والعمل: «العبوا يا اولاد! ... الليل الليل وانا كان ما لي! ... ارقص يا ميمون يا صغير لسيدنا البك، الله ما يجعله يلقى يوم سوء! ...» ودب النشاط في الجماعة فماءت العنزة، ونبح الكلب، ووثب القرد، ورأيت الفرح بالحياة يلمع في عيون الجميع، وكأنهم أرادوا أن يضعوا في ألعابهم هذه المرة كل حرارة قلوبهم المقرة بالجميل، غير أن عمل ذلك الصباح كان في الانتظار ... ولم يكن الوقت وقت مشاهدة ألعاب القرود والماعز ... فأعفيت الأسرة من أداء العمل ... فرفضوا ... وأبى الرجل أن يدعني أنصرف قبل أن يقوم أعوانه بالواجب ... ورأيت منهم الإصرار، وأدركت أنهم لا يقبلون الصدقة؛ فهم ليسوا بمتسولين، إنما هم يأخذون الأجر على عمل أنفقوا فيه جهدًا حتى حذقوه ... فلم أشأ جرح شعورهم ... وقلت للرجل: «طيب العبوا بسرعة! ...»

فابتسم المخرج والمصور، وقالت الآنسة المساعدة: حقيقة، إن في بعض الحيوانات ذكاء يدعو إلى العجب!

فقالت زوجة المصور: ووفاء.

فقلت من فوري: أما عن الوفاء فلن أنسى مطلقًا وفاء الكلبة «فوكسة».

فقال الجميع في عجب: فوكسة؟!

– نعم تلك كلبة كانت في ضيعة لنا ... أهمل شأنها الجميع ... فتركوها تنام حيث تشاء، وتأكل ما تصادف في الجرن من أقذار ... فالفلاحون أفقر من أن يفكروا في أمر حيوان لا ثمن له في سوق الماشية وبلغ من إهمالهم هذه الكلبة أن أطلقوا عليها ذلك الاسم الذي لا ينم عن جهد في الاختيار ... فكل كلب عندهم اسمه «فوكس» ... فلتكن هذه الكلبة إذن «فوكسة»... ولبثت «فوكسة» على هذه الحال من حقارة الشأن وهوان المنزلة، مع أنها حارسة الضيعة التي لا تنام ... إلى أن جاء رجل من بلدة مجاورة يأخذها لتلد صغارًا من كلب له، فقال له أهل الضيعة أن خذها فلا حاجة لنا بها، فأقبل عليها الرجل حاملًا في إحدى يديه حبلًا من الليف وفي الأخرى بعضًا من رغيف أداة الترغيب إذا رضيت وأداة الإرغام إذا كرهت ... ولكن «فوكسة» انقادت للرجل طائعة مختارة ... وعجب الفلاحون لها أول الأمر ... لكن ... لم يمضِ النهار حتى شهدوها في مكانها المعتاد من الجرن رابطة ... وإذا الرجل يرجع حانقًا صاخبًا، لا يدري كيف غافلته وانفلتت عائدة ... وأخذها مرة أخرى فذهبت معه مطواعة مختارة، وعيون أهل القرية تشيعها فتدير وجهها شطرهم، ناظرة إليهم نظرات هادئة مطمئنة، لكنَّ فيها شيئًا كالسخرية، وكأنها تقول لهم: «لا تخافوا، سأعود عما قليل! ...» ولم تمضِ بالفعل ساعة إلا وهي في الجرن من جديد ... حتى قنط الرجل منها ومن أمر زواجها ... وأيقن الجميع أن وفاءها لأصحابها أجلُّ عندها وأفضل من الزوج والزواج.

فالتفتت إليَّ زوجة المصور وقالت: ألا ترى معي أن في هذه الحيوانات شيئًا، «إنسانيًّا» بالمعنى السامي لهذه الكلمة؟

فقلت مؤمِّنًا: هذا صحيح ... بل إن فيها أحيانًا الإنسانية أكثر من الإنسان نفسه! ... إن فكرة «الشر» غير موجودة عند الحيوان، إن أغلب الحيوان محب للسلام والإخاء والصفاء ... والقليل الذي تطلق عليه اسم «الضواري» لم يعرف قط العدوان لمجرد الزهو بالعدوان ... الإنسان وحده من بين مخلوقات الأرض هو الذي يرى في الاعتداء على أخيه الإنسان ما يسميه «المجد والفخار»!

فقالت زوجة المصور: إني معك في هذا الرأي … إن وحشية الإنسان قد بلغت حدًّا لم يبقَ معه إلا أن نرد اعتبارنا إلى الحيوان وأن نعدل نظرتنا إليه وأن نتخذه هو المثل الأعلى لما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان، إذا أراد إقرار الخير والسلام في الأرض.

ومضينا في هذا الحديث حتى التاسعة … فنهضت زوجة المصور … واستأذنت في النزول … فقد كانت في انتظارها نساء من أهل القرية، اعتادت منذ هبطت الريف، أن تضع «القطرة» في أعينهن، وأن تُعنى بشأنهن.

ورأينا أن نأوي إلى حجراتنا نحن الآخرين، كي نستيقظ مبكرين، فنرى شروق الشمس … فقد قال المخرج إنه يود لو يستنبط من طلوعها بين النخيل «عبارة سينمائية» ذات بلاغة وروعة.

الفصل السابع

دخلت حجرتي فوجدتها تضارع جهنم … فالحر يكتم الأنفاس … والهوام تملأ جو المكان … وصوت البعوض يدوي في الآذان … وجاءني خادم من فلاحي هذه القرية قد ألحق مع من ألحقوا بخدمة هؤلاء الفنانين، فوضع دواء في إناء يتصاعد منه بخار طول الليل يطرد البعوض والهوام … ذكر لي أن السيدة زوجة المصور قد أوفدته به … فهي لا تنسى شيئًا مما ينبغي عمله لتوفير أسباب الراحة الممكنة في هذا الريف … فحمدت لها ذلك … ولحظت نظافة هذا الفلاح … فسألته عن أمره … فذكر لي أن «الست الخوجاية» هي التي علَّمته وأفهمته أن يكون نظيفًا … وأنها تراقب بنفسها كل يوم غسيل ثيابه … وأنها تتعهد بالعلاج ما يمكنها علاجه من صحته … وتلاحظ أمر غذائه ونومه وعمله وتضبط أوقات ذلك كله بالساعة … وهي تقوم بهذا كله له ولجميع من يحومون معه ومن يتصلون بالمنزل من الفلاحين والفلاحات، ومن يفد عليها منهم سائلًا شيئًا، فإن الأيام القليلة التي قضتها في إعداد هذا المنزل كانت كافية لإشعار الأهالي بشخصيتها الكريمة وقلبها الحنون النبيل … فأحبها الجميع وأطاعوها … وأصغوا إلى نصحها وإرشادها … ثم ذكر لي كيف أن هذا المنزل كان ممتلئًا بالقذر والزواحف والتراب المتراكم … فهذا المنزل كان مهجورًا منذ زمن طويل … ونظر الفلاح في أرجاء حجرتي وقال بلهجته الريفية: الست الخوجاية وقفت بنفسها علينا لما طلعنا من القاعة دي، كل غلق تراب واخوه! … أصل القاعة دي ولا مؤاخذة فضلت مقفولة من نهار ما انقتل فيها الراجل.

فقلت واجمًا مرتاعًا: انقتل فيها.

فمضى يقول: إيوه … نزلوا عليه بالبلط والفوس.

هو مين؟!

– الراجل.

– راجل مين؟

المعلم ملطي صاحب البيت.

ثم قص عليَّ القصة ... فقال إن صاحب هذا المنزل كان مرابيًا، نزل هذه القرية وأقام فيها أعوامًا يقرض الأهالي على مصوغات نسائهم، حتى لم يبقَ في البلدة شيء يُرهن، غير الأطيان، فجعل ينزع من أملاك الناس ويضيف إلى ملكه، فأثرى ثراء كبيرًا ... ولكن الناس أبغضوه بغضًا شديدًا ... أدى إلى قتله؛ فقد دخل عليه الجناة فقطعوا جسمه إربًا وهو جالس ذات ليلة في حجرته تلك، «يجْرد» ما يختزنه من مصوغات كعادته كل ليلة قبل أن يأوي إلى فراشه ... ومنذ تلك الليلة ... لم يرقد في هذه الحجرة أحد ... فقد روى الناس أنها ... «مسكونة» ... وأنه يسمع فيها إذا انتصف الليل رنين المصوغات على النحو الذي كان يحدث في حياة المرابي.

فما كدت أسمع هذا الكلام من الفلاح حتى قلت مرتاعًا: يعني أنا أول من راح ينام فيها بعد الحادثة!

– إيوه.

فتملكني رعب ... وأنا شديد الخوف من العفاريت مع الأسف الشديد ... فصحت في الحال: هات لي المخرج بالعجل، الله يخرج عينيه من رأسه!

فذهب الفلاح يأتي به ... ولبثت أنا في الحجرة أجيل النظر في أركانها التي لا يصل إليها ضوء المصباح إلا قليلًا ... وصور لي خيالي المصوغات ... فارتجفت وعلمت أني لن أغمض جفنًا طول ليلي في هذه الحجرة ... نعم إني أرهب الأشباح ... وإنه ليخجلني أن أعترف بهذه الحقيقة ... رجل مثلي كثير التأمل في أصول الأشياء وجواهر الكائنات ... غذته الفلسفة الوضعية وأشبعته الحقائق العلمية ... نعم، ولهذا السبب عينه أخاف العفاريت ... فالخوف إنما يأتي من حدوث صدمة فجائية لمنطق الحقائق المتواضَع عليها في حياتنا البشرية وبالأخصِّ في حياتنا العقلية ... فهذا الفلاح الذي يتصور الوجود تصورًا خرافيًّا لن يصدمه كثيرًا ظهور الأشباح ... أما أنا المثقف الذي يفهم الوجود على أساس المنطق العقلي، فإن ظهور شبح، لا أستطيع تعليل سره بعقلي، وأرى أن قد انهار أمام ظهوره منطقي، لخليق أن يصعقني أو يفقدني صوابي من الفور ... لقد كان يدهشني دائمًا في قصة «فوست» أن ذلك العالم الفيلسوف لم يحن لظهور «مفستو» إلا أن يكون هذا العالم قد بلغ في قنوطه من العلم مبلغًا وضعه في موضع المنتظر الهادئ لكل أعجوبة خارقة للعلم ... ولعل هذا كان قصد «جوته»، نعم، لا ريب عندي أن رجلًا مثل «كانْت» أو مثل «أوجست كونت» إذا رأى عفريتًا لارتاع منه ألف مرة أكثر مما يرتاع رجل كالقديس «سانت أنطوان»

أو كالقديس «سان توما» على أن خوفي تلك الليلة من رنين مصوغات المعلم ملطي لم يكن لاعتقادي إمكان ظهور هذه الأصوات ... فالاعتقاد أو عدم الاعتقاد لا يقدم عندي ولا يؤخر، إنما أنا أخاف نفسي ... أخاف خيالي وما ينسج لي من صور، أكثر مما أخاف الأشباح ... في ذاتها إني لا أخشى الواقع ... إني لا أخشى الموت، ولا أخشى الخطر ولا أخشى الجبروت ... ولا أخشى أن أطلق كلمة جريئة صريحة أعتقد أنها الحق ولو نُصبت خلفها المشنقة ... ولكن أخشى الانفراد في مكان يقال لي إنه «مسكون» ... آه هذه الكلمة وحدها هي التي «تُسكن» رأسي أشباحًا لن تبرح حتى يطلع النهار.

لم يمضِ قليل حتى سمعت ببابي طرقًا خفيفًا، وظهر المخرج، فما كدت أراه حتى خجلت أن أذكر له شيئًا مما كان يدور في نفسي ... فهو قد يسيء فهم موقفي، فيسخر مني أو يظن بي الظنون ... فرأيت أن أنتحل سببًا آخر ينقذني من هذه الحجرة تلك الليلة ... فقلت له في صوت المختنق وأنا أضع يدي حول عنقي: أف، الحر.

فلم يمهلني حتى أتم عبارتي، وقال موافقًا وهو يجلب الهواء إلى وجهه بمنديله: صدقت الحر شديد الساعة ... ما قولك لو صعدنا إلى السطح ... ننتفع قليلًا بالنسيم ... ونتحدث في أعمال الغد ... إلى أن يتقدم الليل قليلًا ويعتدل الجو في الحجرات؟

فأسرعت أنتهز الفرصة: ليس والله خير من ذلك!

وخرجنا من الحجرة ... وأنا أرجو في نفسي أن يطول بنا المقام، فلا أعود إلى حجرتي المشئومة تلك الليلة مطلقًا ... وصعدنا إلى السطح ... فلم أجد به أحدًا ... فلقد كان جميع الرفاق الآخرين قد آووا إلى حجراتهم ... مطمئنين، هادئين، إلا ذلك المخرج ... فقد وجده الخادم لحسن حظي مستيقظًا ما يزال يتمشى على السطح حيث تركه أصحابه عقب العشاء والسمر ... فقد راقه جمال الليل ... ونقاء الهواء، فنشط ذهنه للتفكير في فنه، وكانت المائدة ما زالت قائمة بعد أن رُفعت عنها الأطباق ولم يبقَ عليها سوى زجاجة من «البورتو» وبضعة أقداح و«ترموس» به قهوة ساخنة ... فجلسنا.

وقال لي المخرج.

– كأسًا من البورتو؟ ... أو فنجانًا من القهوة؟

فقلت من فوري، وقد تذكرت عزمي على.

– بل كثيرًا من القهوة!

الفصل الثامن

جرع صاحبي كأسين من (البورتو) أفرغا في ذهنه النشاط … وجرعت قدحين من القهوة ألقيَا في عيني اليقظة، وهيآني لاجتياز تلك الليلة التي لن أعود إلى مثلها … وساد علينا صمت مريح … قطعه الرجل قائلًا: والآن إلى العمل قليلًا ولننتهز الفرصة ونتحدث في (السيناريو).

فشعرت كأن الخوَرَ والفتور يدبان في أعصابي، وأحسست كأني موشك على التثاؤب … وأيقنت أن النوم لا بد هاجم عليَّ إذا تحدث هذا الرجل في قصته، فنهضت على قدمي واثبًا، وبادرته: ما قولك في نزهة صغيرة على جسر ترعة هذه القرية.

فقال من فوره: فكرة بديعة.

ثم نهض … ونزل معي إلى الطريق … فوجدنا ببابنا خفيرين نظاميين نصبهما العمدة لحراسة منزلنا فأبيا أن يتركانا نسير في الليل بلا دليل … فبقي أحدهما بالباب، وتبعنا الآخر ببندقيته الحكومية العتيقة الطراز التي تصلح للإرهاب ولا تصلح لقتل الذباب! … ومشينا الهوينا إلى الجسر، فقابلنا قومًا من الفلاحين يهبطون بحميرهم من (داير الناحية) عائدين إلى دورهم … بدأنا بالتحية … فرددنا عليهم بمثلها … وما كادوا يتبينون خلفنا الخفير النظامي حتى أدركوا أن لنا شأنًا وقدرًا فترجلوا احترامًا … وقال لي صاحبي: ما قولك لو استعرنا منهم حمارين نمتطيهما في هذه النزهة؟

فكاشفنا القوم برغبتنا فصاحوا من قلوبهم: تفضلوا! … تفضلوا! … يا ألف مرحبا!

وأقبلوا يرفعون صاحبي بسواعدهم على ظهر حمار … ورأيت بعضهم يهرش جسده هرشًا متصلًا … فقلت لصاحبي أنبهه: لا تنسَ أن القمل قد سكن أجسام هؤلاء المساكين!

فقال صاحبي وهو يعتدل على ظهر الحمار: لا بأس … سأغير ملابسي قبل النوم.

وركبت مثله ... ووعدنا الفلاحين برد الحمير إليهم مع الخفير فانصرفوا راضين ... وسرنا في طريقنا ... والمخرج فرح بالمطية ... والتفت إليَّ قائلًا في ابتسام.

– ما أكرمهم! ... لعلهم أسكنوا القمل أجسامهم كرمًا منهم وحسن ضيافة! ... مهما يكن من أمر فإني أقدِّر هذه النفوس الطيبة الكريمة تقديرًا كبيرًا! ... وإنك لتستطيع أن تدرك قيمتهم وتلمس الفرق في المعاملة والسجية لو هبطت قرية أوروبية وسألت أهلها شيئًا يسيرًا ... لا ... إن شعبكم كريم العنصر بلا جدال ... أما قذارة المظهر فهي تدهشني حقًّا ... ولست أدري ما علتها؟ ... أهي قلة الماء وأنتم لديكم بحران من أكبر البحار، ونهر عظيم، وجو حار يغري الأجسام بالاستحمام!

وسكت فجأة عن الكلام ... وارتفعت من فمه صيحة: ستهوي بنا الحمير إلى الماء!

لقد أصاب ... فإن تلك الحمير كانت تسير على عادتها العجيبة سيرًا لا يبعث على اطمئنان أمثالنا من الفرسان الخائبين ... فلقد كانت تترك عن عمد الطريق الواسعة المستقيمة وتنحدر إلى حافة جسر الترعة حيث لا يفصل بينها وبين الهاوية غير أشبار وهي تسرع في الخطى تارة وتتصادم أرجلها وتشتبك تارة أخرى، غير حافلة بشيء ... كأنها تضيق بالأمن والعافية وتسعى إلى الخطر تلاعبه وتداعبه بأطراف حوافرها ... كما يفعل المتصوفة الذين ينصرفون عن طرق التفكير المعبَّدة إلى اللعب بأفكارهم على حافة اللانهاية.

وسرنا لحظة صامتين ... نتأمل الحقول والنبات والمياه الجارية في القنوات ... وقد اتخذت في ضوء القمر ألوانًا وأشكالًا جديدة ... وسكن حولنا كل شيء ... فالنسيم كان أرقَّ من أن يثير شيئًا ... ومع ذلك فقد كنا نرى الكائنات من حولنا كأنها ساكنة وغير ساكنة ... كأن هنالك أنفاسًا خفية تبعث في الأشياء شبه رقصات لاعبة عابثة، لا ندركها بحواسنا الظاهرة، وخُيل إلينا أن آذاننا تسمع ضحكات خافتة تتصاعد من كل شيء. ولكنها ضحكات كالهمسات. وحركات كحركات أجسام الغانيات الثملات لكأن الكائنات تغتسل في ضوء القمر.

وقال المخرج كالمخاطب لنفسه.

– إني أرى الأشياء الآن كما يراها النظارة من خلال ستار الموسلين الذي يضعه مخرجو المسارح عند تمثل الأحلام فلم أحر جوابًا.

وخيم علينا الصمت من جديد ... فقد أخرست لساننا تلك الروعة التي تحيط بنا من كل جانب.

وهمس صاحبي من بين شفتيه: ما أجمل هذا الريف!

ثم اعتدل وذكر لي مرة أخرى أن زوجة المصور التي مكثت في هذه القرية أسبوعًا تكاد تجن سرورًا وإعجابًا بهذا البلد ... وتتمنى لو تقضي حياتها في ذلك المكان ... ولو تمنح أيامها كلها لهؤلاء الفلاحين، تعينهم على تجميل حياتهم وتوسيع مداركهم ليتذوقوا ما وهبتهم الطبيعة من جمال ... إنها تقول إن الشمس والقمر في هذه البلاد يعملان عمل الخياطة البارعة ... فهما يُلبسان الكائنات بسخاء أثوابًا جديدة مختلفة رائعة الألوان! ... إلا الفلاح، فقد خرج من الحساب؛ لأن أمر لباسه ليس من «اختصاص» الشمس والقمر ... نعم ... كل شيء نظيف جميل في هذا الريف إلا الإنسان وهذا ما يغمرها هي الأخرى دهشة وحسرة.

فقلت لصاحبي وأنا أتنهد: أنا أيضًا يملؤني ذلك دهشة وحسرة منذ أعوام طوال!

فقال: وما العلة؟

فجعلت أفكر وأتكلم كالمخاطب لنفسي: العلة ... العلة ظاهرة.

أنت وحدك ذكرتها الآن دون أن تلحظ ذلك ... العلة هو أنه لا توجد في مصر بعدُ امرأة مثل زوجة المصور ... العلة تستطيع أن نتبينها على نحو بارز، لو رجعنا إلى تاريخ الريف الأوروبي ... فلنأخذ ريفكم الفرنسي مثلًا ... ما الذي حدث فيه؟ ... لقد كان في عهد النظام الإقطاعي بيد الأشراف ... أولئك الأشراف هم الذين جملوا الريف ... بدأ سيد المقاطعة بتشييد قصره الجميل النظيف ... وقطنه مع زوجته وأولاده ... واعتبر أهالي المقاطعة رجاله، الذين يعملون لخيره وعزه وسلطانه ... ويعمل هو لحمايتهم ... على أن المهمة العظمى في رفع مستوى أولئك القرويين، كان قوامها: زوجة الشريف ... إنها هي باستقرارها في الريف واتصالها بزوجات كبار القرويين، عملت على إدخال المثل الصالح في النظافة والذوق إلى جميع البيوت ... لقد كانت هي المرجع الأعلى لشئون الصحة والبيت ... إذا حدث مرض جاءتها النساء يسألنها دواء ... وإذا وقع حدث جئنها يسألنها النصح ... إنها المدبرة لشئون البيت والصحة والنظافة والذوق للقرية والمقاطعة كما أن زوجها الشريف هو المدير لشئون الأمن والقضاء ... إنها هي الحاكمة المطلقة لشئون الحياة الاجتماعية في دائرتها، كما أن زوجها هو الحاكم المطلق لشئون الحرب والكسب ... هي التي تنظم الحفلات وتعد المجتمعات وتنثر النماذج الصالحة لكل ما هو جميل ... من ملبس وتحف وأوضاع ومراسيم يحتذيها ويقلدها زوجات الأثرياء من القرويين أو المقربات من القرويات وهن مشدوهات الأفواه، مفتوحات العيون، ويذهبن فيتحدثن بهذا في القرى ويُدخلن هذا على أنفسهن وبيوتهن ... إلى أن ذهب نظام الإقطاع ومضى

زمن الأشراف ... وجاء عهد الديمقراطية ... فلم يتغير الوضع ... فقد حل في الريف محل زوجة الشريف زوجة المالك الكبير أو زوجة القروي الغني ... وقد ورثت كل صفات السيدة الشريفة فوجدت من واجبها أن تحتذيها ... وتقوم فيمن دونها من فلاحات القرية مقام المرشد المعين ... أما في المدن فقد حلت كذلك زوجة التاجر الموسر والصانع والرأسمالي محل النبيلة وورثت واجباتها ومهامها في المجتمع ... فأصبحت هي التي تزور الأحياء الفقيرة ... تواسي المرضى وتمدهم بالأدوية والنقود وتحمل للأطفال اللعب والحلوى ... ولم يأتِ عصر في أوروبا تخلت فيه المرأة عن واجباتها باعتبارها سيدة ... لأنها تعلم أن كلمة سيدة لم تطلق جزافًا ... إنما هي وظيفة في المجتمع لها عمل يستغرق وقتًا وجهدًا ... ولها مظهر سيادة وقيادة لمن يحتاج إلى المعونة من أتباعها في الريف أو جيرانها في المدن ... لقد تغيرت الأسماء السياسية والاجتماعية في أوروبا ولكن المهام والأعمال لم تتغير ... لقد طلي لون السُّلم الاجتماعي بطلاء آخر ... ولكن هذا السلم قائم دائمًا ... لأنه من نواميس الحياة الثابتة.

ينبغي أن يكون هنالك دائمًا طبقة تتقدم طبقة في الثراء أو في المعرفة ... غير أن الذي شوهد في أوروبا وما زال يشاهد فيها. هو أن كل طبقة في أعلى السُّلم تمد يدها لكل طبقة في أسفله ... هنالك تماسك بين الدرجات ... هناك نموذج يُتبع ومثل يُعطى من الطبقة العليا للطبقة السفلى.

هذا ما حدث في أوروبا ... أما في مصر، فلم يحدث ذلك، فإن الإقطاع في مصر، كان في يد أرستقراطية أجنبية من المغول أو الأتراك العثمانيين، ما كانوا يعتبرون الفلاح رجلهم بالمعنى الأوروبي للكلمة، ولكنهم كانوا يعدونه عبدهم بالمعنى الشرقي للكلمة ... بل أقل من عبدهم؛ فقد كان للكلب والفرس عندهم من الحرمة والكرامة والحقوق ما ليس للفلاح، هذا الفلاح الذي يتكلم لغة غير لغتهم، ونبت في أرض لم تكن أرضهم.

لقد كان القروي الفرنسي يعتبر الشريف سيدًا، ولكن السيد كان يعتبر القروي مثله فرنسيًّا ... يحارب معه جنبًا إلى جنب ... أما السيد التركي العثماني فكان يعتبر الفلاح المصري من طينة قذرة ... فما كان يسمح له بشرف الجندية ولا الفروسية ولا بشرف المصاحبة في حفل أو اجتماع ... هذا عمل المولى ... أما عمل المرأة زوجة هذا المولى ... وهي في أكثر الأحيان من الجواري البيض ... فلا شيء إلا متعة سيدها ... وهي على كل حال قد وُضعت في الحريم ... لا شخصية لها ولا مهمة ولا عمل إلا ما يمكن أن تقوم به المملوكات ... يضاف إلى ذلك شعورها هي أيضًا بذلك الازدراء لكل ما يسمى «فلاح» ... ذلك الشعور

الذي يحول دون كل حدب على هذا الجنس، الذي تعتبره غريبًا عنها، وضيعًا في عينها، فهو جنس المحكومين، حقيرًا في عرفها لا يرجى منه ولا ينبغي أن يرفع من شأنه أو يغير من أمره شيء … وعلى هذا النحو، انشطرت مصر إلى شطرين بعيدين، وانقسمت إلى طبقتين لا تمد إحداهما إلى الأخرى يدًا … وبدأ السلم الاجتماعي على ذلك الشكل العجيب: طائفة في أعلاه وطائفة في أسفله، ثم لا شيء بين ذلك غير فراغ … فقد تحطم وزال في هذا السلم ما بين الأعلى والأسفل من درجات … وانقضى عهد النظام الإقطاعي في مصر … وجاءت العصور الحديثة … فلم يتغير بالطبع هذا الوضع؛ فالمالك الغني أو الفلاح الموسر الذي حل في الأرض محل السيد العثماني، قد ورثه كذلك في طباعه وقلده في ميوله وعاداته … فتزوج هذا الفلاح المالك بالجواري البيض، وجعلهن في الحريم … وازدرى أحيانًا هو أيضًا أبناء جلدته من الفلاحين … ثم ذهبت «بدعة» تقليد الأتراك بالزواج من الجواري البيض … ونشأت القومية المصرية، وظهرت مبادئ جديدة واتجاهات حديثة، وتعلمت المرأة المصرية في المدارس والجامعات، وعرفت كيف تتكلم في المجتمعات، وتكثر من ألفاظ الحرية والمساواة بالرجل، وحقها في هذا وحقها في ذاك … ورغبتها في محاكاة أختها الأوروبية … ولكنها بقيت حتى الساعة التي أحدِّثك فيها وريثة الجواري البيض … قد دخل النور قليلًا رأسها بفعل التعليم، ولكن روحها ما يزال في أكثر الأحيان روح الجواري البيض، إنها ما زالت بعيدة عن أن تكون «سيدة» بالمعنى الأوروبي للكلمة … فالسيدة باعتبارها وظيفة في المجتمع، يقوم على كاهلها أعباء مواساة الفقير ومداواة المريض من أهل حيها أو ريفها، وتجميل القبيح من بيتها، وتعمير الخرب من أحوال بيئتها … السيدة باعتبارها شخصية قائمة إلى جانب زوجها السيد، مسئولة عن أشياء لا يستطيع هو القيام بها … هذه السيدة التي تعَدُّ قوة بناء في المجتمع لم توجد بعد … ولكن الذي وجد حتى الآن، نساء يرتدين أحدث ثياب السهرة مقلدات «السيدات» … قد أتقنَّ بعض الشيء الظهور في الحفلات ودور السينما والولائم والرطانة ببعض اللغات.

ولكن …

وصِحت في الحال فقد قطع حديثي صوت غريب دوَّى في الفضاء الساكن، ألقى الاضطراب والخوف في نفوسنا … وكنا قد بلغنا في سيرنا منزلًا كبيرًا جميلًا، لا ينبعث منه ضوء ولا صوت إلا ذلك الصوت الغريب … فالتفتنا إلى الخفير خلفنا مرتاعين فهدَّأ من روعنا قائلًا: دي سراية الباشا.

ثم ذكر لنا أنها مغلقة، ولا أحد فيها غير ناظر العزبة، يحتل منها الطابق الأرضي … أما الطابق الأعلى فيسكنه ذلك «البوم» الذي يحدث هذا الصوت الغريب … وجعل يصف

لنا هذه السراية وما فيها من أثاث، ويقول بلهجته الريفية في إعجاب: آه لو كنتم تدخلوها وتتفرجوا عليها من جوَّه! … يا صلاة النبي أحسن! … ما ييجي في ريحها بقى إلا سراية البك عبد الغني!

فسألناه عن هذه السراية الأخيرة، فقال إنها في الجهة الأخرى من الجسر في عزبة واسعة لهذا البك، وقال لنا أيضًا إنها مغلقة؛ لأن البك والست مقيمان في القاهرة … فما تمالكت نفسي والتفتُّ إلى صاحبي وقلت له: أرأيت حرم الباشا وحرم البك؟ … تركن عملهن هنا … عمل «السيدات»، وأقمن في القاهرة ليذهبن كل ليلة إلى السينما، هذا ما عملته نساؤنا اليوم بعد أن خرجن من قفص «الجواري البيض»! … آه يا صاحبي … إن «السيدة» الجديرة بهذا الاسم: هي زوجة زميلك المصور … تلك التي ورثت شخصية سيدات الأشراف … ففهمتْ كيف تكون نافعة مفيدة للإنسانية أينما حلت … إنها تريد أن تمكث هنا لترفع شأن هذا الفلاح المسكين وهي لا تربطها به صلة غير صلة البشرية … سألتَني العلة في قذارة هذا الفلاح … فقلت لك وأقول وسأقول دائمًا … العلة هي المرأة … يوم تتخلص المرأة المصرية من روح «الجواري البيض» وتتقمص روح «السيدات» تعال انظر عندئذٍ إلى الريف المصري والفلاح المصري.

الفصل التاسع

عدنا إلى المنزل وقد انتصف الليل ... فدخلنا وأوصلني صاحبي إلى باب حجرتي وقال: نومًا هنيئًا.

فتذكرت من فوري العفاريت ورنين المصوغات وانتصاف الليل، موعد انطلاق الأشباح كما تروي دائمًا الأساطير والخرافات، فوقفت جامدًا على العتبة فقال صاحبي: ما بك؟

– النوم الآن مستحيل ... فالحر والبعوض.

ثم جذبته من يده وقلت له: هلم بنا مرة أخرى إلى السطح.

– كما تريد.

وصعدنا ... فارتمينا في الكراسي، نستريح لحظة مما أصابنا من ظهور الحمير ... ولم يمضِ قليل حتى اعتدل المخرج في مقعده والتفت إليَّ قائلًا: لو انتهزنا الفرصة وعدنا إلى الحديث في السيناريو ... فقلت في نفسي.

– آه ... أهرب من العفاريت تحت، ألقي السيناريو فوق!

ولم يمهلني المخرج ولم يرحمني ... فقد عاجلني بقوله: ما رأيك في موقف «حسن»؟

فالتفت إليه حائرًا منزعجًا.

– حسن من؟

– أبو مهدي.

– ومن مهدي؟

– عجبًا! ... بطل القصة.

– آه ... لا مؤاخذة.

– هل ترى إذن موقف غرامه بأمينة طبيعيًّا؟

– ومن هي ... أمينة؟

– عجبًا لك، بطلة السيناريو.

– آه، لا تؤاخذني.

– إنك تنسى بسرعة مدهشة ... لكن ... لا بأس ... ورمقني بنظرة تسامح أخجلتني ... فرأيت السلامة في أن أتجنب الليلة هذا الحديث فنهضت أبحث عن شيء يشغلنا عنه، فوجدت سلمًا خشبيًّا مستندًا إلى جدار حجرة فوق السطح كانت تُستخدم فيما أرى برجًا للحمام ... فصعدت درجات ذلك السلم حتى انتهيت إلى سطح هذا البرج، وهو أعلى المنزل، بل أعلى مكان في القرية، يشرف الناظر منه على الحقول والجداول والطرق والمساكن ... فوقفت على هذه القمة ... فأعجبتني المناظر التي تكشفت لي منها، فناديت زميلي، فصعد خلفي، ووقف إلى جانبي يتأمل النخيل، رشيقة نحيلة تتمايل تحت النسيم، وقد كلل نور القمر رءوسها بذلك الغلاف الشفاف ... فما تمالك صاحبي أن صاح: انظر! ... كأنها غيد ملاح خارجة من الحريم تتمايل محجبة بالحرير!

وجعلنا نتأمل كل شيء في سكون ... وهبط صمت عميق على القرية ... فكل شيء فيها قد نام ... وإذا صاحبي يشير بأصبعه إلى بعض دور الفلاحين حولنا ويهمس: انظر ... فوق هذه الأسطح.

فالتفت حيث أشار وهمست: ماذا؟

– ألا ترى ... هناك.

فحققت النظر وقلت: أخبرني أنت ماذا ترى؟

فقال في نبرة الإعجاب: هذه الأطياف الصاعدة إلى السطح متدثرة في السواد، لا يبدو منها غير عيون جميلة براقة، انظر، إنها تتمايل بقدودها النحيلة كأنها النحل الثملة من لعب النسيم ... تلك غِيدٌ من حِسان الريف قد اتخذن من الليل ستارًا وصعدن إلى حيث يَلْقين عشاقهن المنتظرين تحت الجدران!

فكتمت ضحكي وقلت له: نحن الساعة أبعد ما نكون عن قصة «روميو وجوليت»؛ فهؤلاء النسوة التعسات إنما تركن هنا أيضًا «القيعان»، إلى السطح هربًا من الحر والقمل والبعوض ... ولا شيء غير ذلك ... فلم يرُق صاحبي هذا الكلام ... فهو لا يريد أن يرى فيما حوله الحقيقة «الواقعة»، ... فقد عاد يقول كالحالم إن أمينة بطلة قصته ينبغي أن تخرج في الليل كأنها الشبح تطل على مهدي حبيبها من أعلى السطح فيراها كأنها الشمس الطالعة من الشرق، قد سطعت ببهائها فمرِض القمر غيرةً وحسرةً وبهت لونه وشحب وجهه، ولقد شعت عيناها بوهج لألاء خالته العصافير فلق الصبح فأخذت في التغريد والغناء، وإنها ما تكاد تبصر حبيبها يتسلق الجدار حتى ترتاع قلقًا خشية أن يراه أهلها فيريدوا به

شرًّا ... فتصيح به. ماذا ينبغي أن تقول له، والتفت إليَّ صاحبي قائلًا: هنا يبدأ الحوار ... ماذا ينبغي أن تقول هذه الفتاة؟ ... فأجبت في سخرية خفية: تقول ... «كيف ولماذا جئت هنا، والجدران عالية، آه لو ... رآك أهلي هنا لقتلوك.» فيجيبها: «إنه الحب قد أعارني أجنحته لأرقى بها هذه الحيطان ... فعقبات الأحجار لا تستطيع صد الحب ... لقد أعارني الحب ذكاءه فأعرته عيني ... إني لست ملاحًا ... ولكنك لو كنت شاطئًا في بحر من البحار النائية لنشرت في الحال شراعي وانطلقت أجوب إليك البحار ... فتقول: «أخشى أن يباغتك أهلي هنا فيقتلوك»، فيقول: وا أسفاه ... إن عينيك لأشد خطرًا عليَّ من عشرين «فأسًا» من «فئوسهم». فتقول له: أتحبني حقًّا؟ ... إنك قائل نعم ...» فيجيبها: نعم، وأقسم لك بهذا القمر الساحر الذي يطلي ضياؤه بالفضة هامَ هذه «النخيل» ... فتقول له: آه ... «لا تقسم بالقمر ... هذا القمر ... المتقلِّب الذي يتغير في كل شهر ... فإني لأخشى أن يكون حبك مثله لا يثبت على حال ... لا ... لا تقسم، حسبي سعادةً أني أراك، وإن كانت سعادتي الليلة لم تبلغ التمام ... فقد جاءت سريعة مفاجئة، كأنها البرق الخاطف يذهب لمعانه قبل أن نستطيع حتى أن نصيح: ها هو ذا قد لمع!»

فالتفت إليَّ صاحبي غاضبًا في غير جد: أتهزأ بي؟ ... ذاك حوار من شكسبير! ... فقلت باسمًا: ماذا أصنع لك ما دمت تأبى إلا أن ترى الأمور بعين الخيال والقصص ... إنما الحقيقة التي أعرفها هي أني لم أرَ قط في هذا الريف غرامًا ارتفع إلى هذا المستوى الشعري، الذي يدخل في إطاره القمر والشمس والنسيم والزهور والندى ... لو أن هذا الغرام وُجد لوجدت النظافة في الحال ... ولوجد شيء من الذوق، ولوجد شيء من الجمال ... لا شيء يخلق في المرأة الرغبة في التجمل والشعور بكل ما هو جميل غير الحب النبيل ... كل ما يدرك من أمر الحب هنا، إنما هو حب الحيوان أو حب العبيد: شيء مباشر وضيع زهيد ... يأتي ويذهب فلا يخلف أثرًا غير الأثر المادي البيولوجي الذي يخلفه عادة بين طائفة القرود أو الزنوج ... أما ذلك الحب الذي يأتي فيفتح العيون والنفوس على ألوان من الحسن وضروب من الإحساسات الرفيعة ... ولا يذهب حتى يترك صاحبه وقد تكون تكوينًا جديدًا وسمَا على نفسه سموًّا ملحوظًا! ... ذلك الحب الذي كان دائمًا خير مدرسة للمشاعر ... البشرية العليا ... ذلك الحب الذي كان دائمًا النبع الذي انبثق منه الفن والجمال؛ عمادَا الرقي الإنساني ... ذلك الحب لا يمكن أن يوجد الآن في هذه البقاع؛ لأن وجوده معناه أن الإنسان الأعلى قد وجد ... وهذا ما لا نستطيع أن ننعت به بعدُ هذه المخلوقات المسكينة.

قد تسألني ... ولماذا لم يوجد هنا هذا الحب ... فأقول لك مرة أخرى ... لأن العلة هي دائمًا العلة. إن الحب الرفيع لا يظهر مطلقًا في جو العبودية ... ولا ينبت إلا في أرض الحرية الروحية ... والمرأة المصرية ربيبة الجواري لم تكن تفهم من الحب إلا ما تفهمه الجارية المملوكة ... إن الحب الرفيع زهرة ينبغي أن تساقط بذورها من السماء ... وليس في جو «الحريم»، المغلق سماءٌ.

هنا قاطعني صاحبي صائحًا.

– عجبًا، أوَلم ينقضِ عهد الحريم بعد؟ ... إني أرى المرأة المصرية في المدن قد خرجت سافرة وتعلمت وبدت كالمتحضرة.

فقلت له: نعم ... حدث هذا الانقلاب ... وقد جاهد مصلح اجتماعي هو «قاسم أمين» طول حياته من أجل هدم قضبان «الحريم» المادي ... وقد نجحت صيحته ... وكسرت المرأة قيودها المادية، وظهرت في المجتمع على صورة شبه متحضرة ... ففرحت وتملكها الزهو وظنت أنها بلغت النهاية.

ولكن ... للأسف! ... اتضح لعيني أنها ما زالت ترزح في قيد آخر لم تلتفت إليه ... قيد يحتاج إلى صيحة أخرى من قاسم أمين آخر يتم المرحلة! ... إن المرأة المصرية قد خرجت حقيقةً من سجنها المادي، ولكنها ما زالت رهينة سجنها الروحي ... إنها في شبه حريم معنوي لا تكاد تحسه؛ لأن مداركها المعنوية ما زالت قاصرة ... إن الحب الرفيع مجهول لا عند نساء الريف وحدهن، بل عند نساء المدن المتعلمات أيضًا ... لأن روح الجواري البيض كاملًا ما زال في هؤلاء وأولئك على السواء ... ولو وُجد هذا الحب في الريف والمدن لوجد الفن العظيم في الحال ... إني باعتباري روائيًّا لا أستطيع أن أتصور حوارًا رائعًا بين مصرية ورجل تحبه ... لو وُجد الاثنان في حديقة مقمرة ماذا يقولان؟ ... من العسير أن أتخيل شيئًا جميلًا يقال بين هذين المحبين ... فهي ما زالت على الرغم من حريتها المادية تحس كأن شيئًا سجينًا فيها ... إنها لا تدري ماذا تقول لحبيبها عند اللقاء، فليس في تاريخ عصورها القريبة ما يُسعفها ... وليس في ألفاظ لغتها العادية ما يواتيها لساعتها، وليس في مداركها ومخيلتها ما ينقذها. إن الأوروبية تتكلم في الحب وأمامها صورة باتريس الإلهية حبيبة الشاعر دانتي ... ولورادي توفس ملهمة بترارك ... وتتمثل ما جرى بينهما من نبيل الحوادث وتتذكر ما تعلمته من جميل الشعر والأحاديث والمثل العليا التي يوحيها الحب النقي الطاهر ... إن الفن والشعر والأدب قد علم المرأة الأوروبية ماذا تقول وماذا تفعل إذا أحبت ... لأن الفن والأدب كانا من لزوميات سيدات القصور منذ عهد الإقطاع ... فهن حاميات الشعراء والفنانين ... وهن المتذوقات المتفهمات لنتاج قرائحهم ... ومَن غير

المرأة ينبغي أن يتذوق محاسن الطبيعة والأذهان ... ومَن غير الجميلة يقدِّر الجمال ... ثم ورثت نساء الشعب عن سيدات القصور هذا التقليد، فصرن يقبلن على الفنون يجملن بها أرواحهن إقبالهن على الأصباغ يجملن بها أجسامهن ... وصارت القادرة منهن تفتح صالونها للفنانين والشعراء ... وارثة بهذا عن سيدة القصر حق حماية صانعي الجمال والذوق ... ذلك أن السيدة الجديرة بأن تسمى سيدة، تلك التي يجري في عروقها دم الحرية والسيادة ينبغي لها دائمًا أن تشعر في نفسها أنها تحمي شيئًا أو تدافع عن إنسان ... لذلك جعلت الأوروبية دائمًا من عملها الطبيعي وواجبها القومي أن تحمي الفقراء والأطفال والمرضى ... ثم أهل الفنون إذا استطاعت؛ أي تلك الطوائف من الأمة التي تحتاج إلى مشاعر المرأة الرقيقة النبيلة ... هذا هو معنى الحرية الروحية عند المرأة ... تلك الحرية التي أطلبها لبنات جلدتي في مصر والشرق ... وأتحمل أحيانًا الأذى منهن؛ لأني أصارحهن في عنف بما هن في حاجة إليه ليبلغن هذه الغاية ... فأنا مؤمن كل الإيمان بأن بلادنا كلها تنقلب انقلابًا عظيمًا عجيبًا لو تمت هذه المرحلة الثانية من مراحل نهضة المرأة المصرية والشرقية ... خروجها من الحريم «الروحي»، ونبذها ما علق بها من آثار الجواري ... وبلوغها مرتبة «السيدة»، التي تخلق شيئًا وتحمي شيئًا.

الفصل العاشر

رفع صاحبي رأسه والتفت إليَّ قائلًا: هل أسمعت المرأة المصرية آراءك هذه؟

فقلت من فوري: إني لا أترك مناسبة دون أن أُسمعها آرائي فيها ... فإني من أشد الكتاب عناية بشئونها ... إذ ينبغي أن أقول لك شيئًا: في المصرية فضيلة كبرى: هي أنها قديرة على التطور السريع الصامت ... لذلك سمحت لنفسي دائمًا أن أصارحها إلى حد العنف كما ذكرت، حتى ألفت نظرها إلى ما فاتها رؤيته أثناء خطوها الواسع ... يخيل إليَّ أن السهولة التي تتطور بها المصرية سببها بسيط؛ إنها تحتفظ دائمًا بطبيعة المصرية القديمة تحت ثياب الجارية العثمانية ... فما علينا إلا أن ننبهها إلى خلع هذه الثياب شيئًا فشيئًا؛ لتبدو حقيقتها الأولى المجيدة: تلك التي كانت تحسن إدارة البيت والمملكة، وتُعنى بأمر الفنون، وتضع أسس الحضارة ... سأتكلم دائمًا هذا الكلام ولن أكف عنه، وإن تعرضت للسخط العام، حتى أرى المرأة المصرية قد نفضت عنها رداء العبيد والجواري البيض لتظهر من تحته سليلة نفرتيتي وحتشبسوت!

فقال صاحبي: ألم يخطر لك، بدلًا من تنقلك في الفنادق، أن تتزوج لتخلع أنت بيديك هذا الرداء؟

فقلت لصاحبي في شبه صيحة: أنا أستطيع أن أخلع رداء أحد؟ ... آه يا صاحبي ... إنك لا تعرفتي ... لقد وددت حقًّا لو أتزوج بمصرية ... ولكن شيئًا واحدًا يمنعني: هو: أشفق عليها من طبيعتي المتعبة ... ما أنا إلا «حالة عسيرة»، كما يقول الأطباء، قد يستعصي أمرها حتى على الأوروبية المحنَّكة التي اعتادت أن تفهم زوجها في هذه الحالة، وتدرس خلقه وطباعه في صبر وسكون وتهيء له نوع الحياة التي تلائمه ... كلا ... إني على الرغم من خشونتي في القول للمرأة المصرية، شديد العطف عليها ... ولست أحب أن أدفعها إلى مثل هذا الامتحان العسير.

أخشى أن تكون مبالغًا.

إني لا أبالغ ... إن الحمل سيكون ثقيلًا عليها والتبعة جسيمة ... فأنا رجل «مطلَق»، يعيش في جو «المطلَق»، ... قد أستطيع أن أدير الأشياء من علٍ في إجمالها، لا في تفاصيلها، فمن أراد أن يشاركني الحياة عليه أن يتحمل هو جميع الأعباء والمسئوليات، ولا يترك لي غير مظاهر الشركة، أو على الأقل مسائلها الكبرى ... ينبغي بالاختصار لزوجتي أن تجعل مني «ملكًا دستوريًّا يملك ولا يحكم»، ... على أني في ذلك أيضًا أحتاج إلى يد بارعة تخفي سلطانها في قفاز من المخمل الناعم وإلى سياسة حاذقة لا تشعرني بحقيقة الواقع ... أشعروني دائمًا أني مطلق الحرية ... وأني صاحب الأمر والنهي، واسْلبوني بعد ذلك ما شئتم من حرية ونفوذ في أسلوب لطيف غير منظور ... الويل كل الويل لمن يدفعه سوء الطالع أو الحمق وقلة التبصر إلى أن يضع في قدمي قيدًا أشعر بوخزه! ... ولكن النجاح حليف من يعرف كيف يربطني، دون أن أتنبه، بخيط حريري دقيق طويل، أتحرك فيه على راحتي ولا أحس له وجودًا! ... إني رجل لا أحب أن أكذب على نفسي، ولكني أحب أن يكذب عليَّ الناس.

... فضحك صاحبي وقال: لا أظن بُغيتك مما يستحيل العثور عليها ... ولكنك فيما أرى لم تكلف نفسك حتى عناء البحث.

البحث؟! ... أنا الذي يبحث عمن يضع في يدي قيدًا! ... لم يُخلق بعد العصفور الذي يبحث عن الصياد؟! ... ومع ذلك.

– ومع ذلك؟

لفظها صاحبي في لهفة وحب استطلاع ... فقلت له وأنا أحاول التذكر: كنت موشكًا على الزواج منذ عشر سنوات ... لكن ... ثم كرَرت بفكري راجعًا إلى ذلك العهد وابتسمت؛ فقد مرَّت برأسي صورة ما حدث وما ثنى عزمي عن المضي في ذلك الأمر.

– كنت ذات عصر راكبًا عربة يجرها حصانان ... وإلى جانبي أحد المهتمين بشئوني ... فرأينا السائق يهوي بسوطه على أحد الجوادَين ... فمال من الألم على شريكه كأنه يشكو إليه، والتقى رأسَا الجوادين كأنهما يتسارَّان ... فجعلنا نتحدث في ذلك ونقول: إن مركبة الحياة كذلك لا يهون من أوجاعها غير أن يربط إليها شريكان يشدان عجلاتها ... ويشجع أحدهما الآخر كلما سلط عليه القدر سوطًا من سياطه ... ثم قلنا: من يدري لعل هذا سر ذلك الحظْر الذي نراه في بعض المدن على من يستعمل مركبة ذات جواد واحد ... ثم مضينا في الاستطراد حتى قلنا: ولماذا لا يسري الحظر على مركبة الحياة ... وعند ذاك

اتجه الكلام إليَّ ... وصارحني من معي بأن مركبة حياتي لا ينبغي بعد اليوم أن أجرها بمفردي ... فإنها قد تحمل فوق ما أطيق؛ وأنا رجل غريب الأطوار، قد أسير بها سيرًا غير مألوف فأتخبط بها في طرقات غير ممهدة لا أحفل بسوط سائق ... بل من يدري، لعلي جمحت مرة فأسقط سائقي في الأوحال، وجعلت أنطلق منفردًا بمركبة بلا نور، أركض بها على غير هدى حتى أرتطم في جدار ... وانتهى الأمر بصياح ذلك المهتم بشأني: لا بد من زواجك.

فقلت له هو أيضًا: لا ... إني لست جوادًا من هذه الجياد ... إنما أنا حمار وحشي من تلك الحمر الوحشية ذات النقوش الطبيعية السوداء البيضاء ... ما أجمل منظرها حقًّا لو شدت إلى عربات المدن! ... ولكنها لا تطيق أن يمس رءوسها لجام! ... إنها خلقت لتمرح في الغابات وتعيش في حرية الطبيعة المتوحشة ... معجزة واحدة تستطيع أن تجعل منها مخلوقات طيِّعة هادئة نافعة: غادة فاتنة في يدها سوط من حرير تروضها في صبر طويل ... وترقص على ظهورها في حلبة «سيرك» تعزف فيه الموسيقى بحلو الأنغام!

فإلى أن توجد المصرية التي تروِّض حُمُر الوحش في غاباتنا الأفريقية فإن أمَلي في الزواج قليل.

فصاح المهتم بشأني: يا أخي لا تعقِّد المسائل! ... حمار وحشي أو حمار «حصاوي» ... أهم كلهم حمير! ... وتزوجوا وعاشوا وخلفوا صبيان وبنات في أمان الله أربعة وعشرين قيراط! ... دا شيء مكتوب علينا جميعًا ... أرجوك تسمع نصيحتي وتسعى جديًّا في الموضوع!

– في الحالة الحاضرة ... وقتي ضيق.

فقاطعني صائحًا: اترك لي المسألة.

ولم يمضِ شهر حتى وجدت ذلك الشخص الكريم قد خلا بي ووضع في يدي صورة فوتوغرافية لفتاة ظريفة وقال لي: تعجبك؟

فتأملت الصورة مليًّا ثم قلت: من أي وجه؟

فصاح بي: اعمل معروف لا داعي للفلسفة ... إن كان شكلها مناسب؟

– مناسب.

انتهينا.

ثم مدَّ يده إليَّ وقال: وصورتك بسرعة ... آخر صورة لك.

– الصورة الوحيدة الموجودة عندي ... هي صورة جواز السفر.

– ما تنفعش! ... قم بنا نعمل لك صورة «جواز» فقط!

وسحبني من يدي ... وذهب بي إلى محل «مصور فوتوغرافي» معروف ... فوضعني ذلك المصور أمام لوحة من قماش تمثل ستارة سوداء، وأراد أن ينزع من يدي العصا، ليضع هذه اليد فوق «درابزين»، مزيف قد أتى به، فأبيت ذلك عليه، فردَّ إليَّ عصاي ... ونظر من معي إلى وقفتي فلم ترقه فصاح في المصور: هو واقف على إيه!

فقال المصور: على سلم.

فصاح به: وإيه مناسبة السلم والدرابزين! ... اجعل وقفته في جنينة وحط الورد حواليه، وارفع الستارة المحزنة من جنبه وانصب بدلها خميلة ياسمين أو تكعيبة عنب! ... بالاختصار مناظر مفرحة ... ثم مال على المصوِّر، فأسرَّ في أذنه كلامًا ... فتهلل وجه المصور وقال: فهمت الطلب.

ثم أسرع فأحضر ستائر حمراء ومناظر خضراء وأصص أزهار ورياحين وهو يقول: إن شاء الله أطلعه يحاكي البدر في سماه!

فأردت أن أُظهر عجبي لهذه المعجزة إذ صحت ... فأسكتني وأوقفني بين المناظر الرائعة والخضرة الزاهرة ... ودخل هو في ... شيء يشبه «البطانية» السوداء يغطي جهاز تصويره ولبث فيه لحظة ثم خرج يصيح: واحد، اثنين ... تلاتة! ... مبروك!

فتركت موقفي ... وأقبلت على المصور أوصيه: الصورة تكون طبيعية ... إياك تعمل «رتوش»! ... فما شعرت إلا والمتولي شأني قد انتزعني انتزاعًا من بين يديه ودفعني بعيدًا وأقبل على المصور يقول له: إياك تسمع كلامه!

ثم التفت إليَّ قائلًا: حد في الدنيا يقول للمصوراتي ما يعملش رتوش؟ ... خصوصًا لحضرتك!

فقلت: على كل حال، لا بد من كوني أطلع على «البروفة» قبل كل شيء! ... فقال المصور إن تجارب الصورة يمكن الاطلاع عليها في صباح اليوم التالي ... فغادرناه على أن نعود إليه في الغد ... ومضى النهار ... وجاء الغد ... فانسللت بمفردي إلى حانوت المصور. أطلع خفية على تجارب الصورة ... فعرضها عليَّ ... فتأملت وجهي فيها ... فلحظت أن شاربيَّ غير متساويين في الطول ... وأن شاربًا أقصر من شارب ... فتباحثنا في علاج ذلك ... وقلت له إن «الرتوش» الوحيدة التي آذن بها هي أن يمد ريشته إلى الشارب القصير فيطيله حتى يساوي أخاه ... وانصرفت ... وانتصف النهار ... وقابلت بعد ذلك المهتم بشأني ... فقصصت عليه ما حدث من أمر الشارب ... فما راعني إلا قوله إنه مر هو الآخر

بحانوت المصور عقب انصرافي. فلما علم بمسألة الشوارب، أمر المصور أن يزيلها كلها وكفى المؤمنين شر القتال ... فما إن سمعت منه ذلك حتى صحت في وجهه: يزيلها كلها!

– إيه المانع؟

أنا بشوارب، تعملوني من غير شوارب، هذا العمل اسمه تزوير.

– يعني لا سمح الله قمنا زورنا في كمبيالة!

– هو التزوير لا بد يكون في كمبيالات؟!

– كان غرض حضرتك إن أهل العروسة يقولوا مقدمين لنا عريس «بشنب ودقن»؟!

– نقوم نلجأ للغش؟!

– وانت فاهم إن صورة العروسة خالية من الغش؟

– شيء عجيب!

– مؤكد ... شيء مفهوم مقدمًا ... وفي المستقبل يتضح لك أن ما عملناه أقل ما عملوه بمراحل ... اطمئن!

فقلت من فوري: الحمد لله اطمأنيت ... إذا كان مجرد «الشكل» وضعناه على هذا الأساس، يبقى «الموضوع».

فقاطعني: لا ... «الموضوع» مضمون أربعة وعشرين قيراط، ثروتها معروفة وتحرياتنا صحيحة ... وانت حالتك المالية واضحة.

– دا كل قصدكم من «الموضوع»؟

طبعًا ... فيه شيء غيره؟

فلم أطق صبرًا، فقمت دون أن أجشِّم نفسي مشقة الجواب ... وذهبت ... وقد ذهبت عني فكرة الزواج إلى اليوم ... ولم يعد شبحها يظهر إلا مقترنًا بذكرى هذا الحوار بنصه وألفاظه كما سمعتها، فكانت ذكراه تقصيني من فوري عن المضي في التفكير ... فهذه الشركة النبيلة بين روحين تعاهدا على السير جنبًا إلى جنب في طريق الحياة الشاقة الطويلة، ما زالت تقام في أغلب الأحيان على هذا النحو المخجل ... وإذا صلحت هذه الطريقة لكثير من الناس ... فهل تصلح لشخص مثلي قد تتأثر حياته الفكرية وإنتاجه الذهني إلى حد كبير بشخصية الشريك ... لذلك آثرت السلامة ... وأحجمت عن المغامرة، خشية الوقوع في غلطه تفسد عليَّ الحياة كلها.

ورجعت إلى وحدتي ... تلك الوحدة الباردة التي تحيط بي من كل جانب ... فما أنا في الحقيقة دائمًا سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد، وضعتْ داخله يد المصادفة

إناءً يغلي ... ويتصاعد منه بخار؛ هو تلك الأفكار، التي تخرج من نافذتي إلى حيث تصل أحيانًا إلى جموع الناس ... فإذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لي ما سوف تلقيه في هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك!

وهكذا قضيت حياتي متنقلًا، تائهًا ليس لي مكان معروف ... ولا عنوان دائم ... فما تركت فندقًا لم أنزله ولا نُزلًا لم أهبطه ... حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال، واستنكفت أن أعيش دائمًا هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة ... فأردت أن أجرب الحياة المستقرة في مسكن ثابت اخترته في بقعة جميلة من بقاع القاهرة ... يشرف على النيل، وترى من نوافذه القلعة والأهرام ... وعنيت بأثاثه، وأعددت فيه مكتبًا أنيقًا وخزائن للكتب ... واقتنيت سيارة ... وأقمت بمفردي وحولي خادم وطاهٍ وسائق.

فماذا حدث؟ ... لم أتحمل الحياة فيه عامًا ... فقد كاد الخدم الثلاثة يُذهبون البقية الباقية من عقلي ... فالخادم النوبي جعل يكسر «أسطواناتي»، الثمينة ... وتحريت أمره فعلمت أنه يتربص بي حتى أخرج في الصباح، فيدير «الجراموفون»، ويضع ما يقع في يده من أعمال «بيتهوفن» و«موزار» ... ولا يحلو له تنظيف «الباركيه» وطلاؤه إلا على هذه الأنغام.

أما الطاهي فقد كان يبدي الابتكار في ألوانه أول الأمر ... ثم قصَّر وتراخى حتى صار الطعام ضربًا من «الروتين»، لا طعم له ... فكنت أحيانًا أتركه بما أعدَّ لي فيه وأذهب إلى مطاعم المدينة ... ولقد كان للخدم دائمًا طعام غير طعامي ... هو في أكثر الأحيان ألذ وأمتع ... ولطالما أمرت الطاهي أن يحضر لي مما في قدورهم ويحمل كل هذه الألوان التي نسقها تنسيقًا ظاهرًا دون أن يضع فيها روحه وقلبه.

وليس هذا كل شيء ... فقد علمت أن الطاهي يعد على حسابي قدرًا كبيرًا من الطعام يقدمه بالأجر إلى بوابي الجيران، وأن الخادم يدعو جميع زملائه النوبيين كل عصر عقب انصرافي إلى تناول الشاي ... ولم يدهشني ذلك؛ فإن نفقاتي بمفردي كانت دون أن أدري نفقات أسرة مكونة من عشرة أعضاء، وما نبهني إلى ذلك إلا ضيف عابر ... على أن كل هذا لم يغضبني كثيرًا ... إنما الذي أثارني حقًّا هو مسمار صغير وجدته يومًا في لون من ألوان الطعام، كدت أزدرده ... هنالك لم أطق صبرًا ... وعلمت أن الخدم بلا رقابة هم خطر من الأخطار العامة ... وما ملكت نفسي عن الصياح فيهم يومًا: «والله لاتزوج لكم وأمري إلى الله! ...»

أما السائق فلا يريد أن يصغي إلى رجائي كلما طلبت إليه ألا يسرع ... فأنا أبغض السرعة ... إنها تمنعني من التفكير، ولطالما أكدت له أني لست متعجلًا شيئًا ... ولا شيء في الوجود يستعجلني ... فأنا عدو الزمن والوقت ولم أحمل ساعة قط ... فالوقت عندي ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا ... ولكنه ينطلق بي رغم ذلك، كأنما يريد أن يطرحني في أسرع وقت، ليخلص مني وينصرف إلى شأنه ... فكنت أتركه أحيانًا يقف منتظرًا في جانب الطريق ... وأسير مفكرًا حرًّا حيث أشاء ... ثم أدرك أخيرًا أني لا أحب السهر، وأني شديد الكسل، وأني أكتفي بعبارة أقولها له كل عصر ... «اطلع جهة فيها هواء نقي» «فين؟ ...» «أي جهة تختارها»، فيمشي بي حيث يريد هو، دون أن أعترض ... ويقف بي أحيانًا حيث يشاء ويقدِّر أن المناظر جميلة والهواء منعش، فلا أتكلم ... فإن فكري منصرف دائمًا عنه، ما دام لا يسرع بي ولا يقول لي: «تفضل»، إلا أن يرى أن الأوان قد آن للتحرك فيقودني إلى حيث أتناول الشاي أو العشاء في الأماكن المعتادة ... فإذا أمرته في المساء أن يذهب بي إلى السينما ... فقد عرفت ألا يسألني: أيها؟ ... بل يمضي بي طائفًا على جميع الدور ... فيقف أمام كل باب من أبوابها لحظة، فإذا نزلت فقد انتهت مهمته، وإذا لم أنزل فإنه يتحرك إلى غيرها ... وإذا مر بجميعها فلم أغادر السيارة فإنه يعود بي من تلقاء نفسه إلى المنزل ويقول لي: «تفضل»، فأنزل في صمت ... وقد شعرَ بقدر هذه السلطة الواسعة في يده فاستغلها آخر الأمر استغلال الطاغية لحرية الشعب ... فكان إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكرًا ويخلص إلى شأن من شئونه، طاف بتلك الأماكن طوافًا سريعًا لا يكفي لإيقاظي من تأملاتي أو إخراجي من ترددي ثم ردني إلى منزلي ولما تدق التاسعة قائلًا: «تفضل»، فأنزل دون أن أتنبَّه لما حدث ... وفطنت ذات ليلة إلى إرادته ... وكانت بي رغبة في السهر ... فما تمالكت أن ثرت لحريتي المسلوبة وصحت.

– «إنت غرضك تنومني المغرب؟! ... قسمًا بالله العظيم ما انا نازل».

هكذا كان شأني في المسكن الخاص بين أولئك الخدم ... وقد لبثت على هذه الحال زمنًا ... اختمرت فيه داخل نفسي جراثيم الثورة الكبرى على هذا النظام فبيَّت النية ذات ليلة على خلع نير هؤلاء الذين يسمُّون أنفسهم خدمًا لي ... فلما كان الصباح أعددت حقائبي ... واستدعيت البواب وطلبت إليه أن يبحث عمن يحل محلي في هذا المسكن بأثاثه ورياشه ... فأتى إليَّ برجل إنكليزي وزوجته فتركت في عهدتهما كل شيء، حتى كتبي ... وغادرت ما في البيت من أشياء خصوصية ومن مئونة حتى زجاجات المياه المعدنية وعلب الجبن والمربة والزبد واللبن والشاي والفطائر، وطردت خدمي ... واستغنيت عن سيارتي ... وانطلقت

بمفردي حرًّا من جديد ... أتنقل في الفنادق وأطوف بالشوارع، وأتقفز إلى عربات الترام وسيارات الأتوبيس، وأختلط بالناس، وأمتزج بالجماهير ... فأحسست كأن الدم يعود حارًّا إلى عروقي وأن قدمي قد فرحتا بلمس الأرض من جديد، وأن فكري قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه مع السير الحر بالأقدام في كل مكان، وملاحظتي الناس في الطرقات قد أخصبت ذهني الذي حبس طويلًا خلف الزجاج ... وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوي كيزانه على عربته الصغيرة فأحادثه وأباسطه، لا يتعجلني سائق ولا تنتظرني سيارة، وأصغي إلى حديثه الطويل في ذلك الليل مع كناس الجهة ... فأشترك معهما في الحديث والسمر ... ورأيت الكناس يسامر البائع طمعًا في كوز ... والبائع لاهٍ عنه لا تخطر له العزومة على بال؛ «فإن الشغل شغل» في عرف التجار ... فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحدًا واستبقيت لنفسي الآخر ... فدعا لي الكناس الدعوات الصادقات ... وجعل يأكل ويقص عليَّ مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة.

عرض هذا الشريط كله في رأسي عندما سألني المخرج ذلك السؤال ... ولم أجبه بشيء غير تلك الابتسامة التي أثارتها هذه الذكريات.

الفصل الحادي عشر

وأدركتنا تباشير الصباح فسكتُّ عن الكلام المباح ... وانقضت حاجتي إلى إمساك صاحبي ... فهو حر الساعة يذهب حيث شاء ويصنع ما يشاء ... وأذن الفجر في زاوية القرية، وأبصرنا الفلاحين يهبُّون ناهضين فوق الأسطح، ويخرجون من الدور يسوقون الماشية إلى الغيطان ... وسمعنا صوت المصور يصيح بنا من أسفل المنزل يدعونا إلى مشاهدة تصوير الشمس الطالعة ... ووجدنا زوجته النشيطة قد قامت تأمر وتنهى الخدم، وتباشر غلي الحليب وإعداد الفطور.

وما كدنا نفرغ من تناول القهوة واللبن حتى نهضنا إلى العمل ... وتذكرت الجحش فأوفدت في الحال من يطلبه في دار العمدة ... فجاءوا به يقولون إنهم قد عرضوا عليه كل أتانة والدة وحبلى في القرية، فما قبِل أن يدنو من ثديها، وأصرَّ على هذا الصوم الصوفي، وأكدوا لنا أنه سيموت لا محالة، فصاح المخرج: أعدوا الكاميرا حالًا ولنلتقط «للفيلسوف»، صورة قبل أن تحضره الوفاة.

وأجلسوني في الجرن خلف كوم القمح ودفعوا «الجحش» الهزيل إلى جواري ... فوقف المسكين كما أرادوا له أن يقف، دون أن يتململ أو يتحرك، ورأى أني قد بسطت كفيَّ مفتوحتين في حجري فتقدم ووضع رأسه بين هاتين الكفين، فصاح المخرج فرحًا: هذا موقف رائع ... إن «الفيلسوف» يفكر مطرقًا واضعًا رأسه في كفيه.

فقاطعته محتجًّا: إنهما كفَّاي أنا.

فقال المصور وهو يلتقط المنظر: لا فرق، أعني ... لا بأس ... ولا ضرر.

لا فرق؟ ... لا ... بل إن هناك فرقًا ... إن هذا «الفيلسوف» أجدر بهذا الاسم مني لو أني كنت حقًّا فيلسوفًا ... فهو لا يبدو عليه أنه معني بما يُصنع به ... إن منظر الكاميرا لم يثر استطلاعه ولا اهتمامه كما فعلت المرآة؛ فالمرآة تجعله يعرف نفسه بنفسه.

وهو كل ما يسعى إليه، وهو غرض الفلاسفة في كل زمان ومكان ... أما الكاميرا فهي الصورة التي يأخذها الناس عنه ... وماذا يهم الفيلسوف الحق أن يعلم رأي الناس فيه؟!

وفرغوا من أمر تصويرنا ... وسلمنا «الفيلسوف» لأحد الفلاحين فأعاده إلى حيث ينتظر في سكونٍ قضاءَه المحتوم، وسرنا طول يومنا، نضرب في الحقول والغيظان ... حتى كادت تنخلع مفاصلي ... أما أصحابي فلم يبدُ عليهم تعب ولا كلال إنما هم جن وعفاريت قد سلطها الزمان على هذه القرية وعلى حيواناتها وعليَّ ... فما من ثور أو جمل إلا صوروه ... وما من محراث أو نورج إلا التقطوه ... وما من شيخ غريب السحنة أو يافع قوي البنية أو فتاة غضة بضة إلا أوقفوها وصوروها وحيروها وأتعبوها ... ثم نقدوا كل هؤلاء قروشًا جديدة لامعة أتوا بها خصوصًا لهذه الغاية ... حتى اجتمع حولنا شيوخ القرية وفتيانها وفتياتها وأطفالها وثيرانها وخرافها وإبلها ودجاجها ... كلٌّ يصيح قائلًا: «صورونا» «والنبي تصورونا! ...» «هات قرش يا خواجة وصور العيال! ...»

وتركتهم آخر الأمر يفعلون ما يريدون ... وجلست القرفصاء على قارعة الطريق الزراعية ... أنتظر ساعة الفرج ... وأقول في نفسي: آه ... لو طلت الأتوموبيل ... ووضعت رجلي فيه.

الفصل الثاني عشر

وجاء العصر أخيرًا ... فنبهت صاحبي إلى ساعة عودتي ... وذكرته بالموعد الذي يقتضي وجودي في القاهرة ذلك المساء ... فأمر في الحال الخدم فأعدوا السيارة ... وأسرعت إلى حقيبتي الصغيرة فدفعتها إلى من حملها ... وودعت الجميع وقلت على سبيل المجاملة إني عائد إليهم في أقرب فرصة تسنح ... وأوصى المخرج مساعده أن يقودني إلى فندقي ... وأخبرني أنه سيحضر القاهرة هو الآخر بعد يومين أو ثلاثة، وسيزورني، وأوصاني أن أضع همي الآن كله في مسألة الحوار ... ورجا أن أصنع الآن شيئًا، وقد رأيت هذه البقعة من الريف والمواقع التي ستُجرى فيها القصة ... وأكد القول إني أنا الآن وحدي الذي يحول دون البدء في عملية الإخراج ... فكل شيء جاهز؛ فالسيناريو موضوع، والمواقع معروفة ... والوجوه موجودة، والممثلون حاضرون، وألوف الأشرطة الخام قد أرسلتها الشركة، وهي تحت أمر المخرج في مخازن كوداك ... كل شيء قد تم إلا الحوار ... فطمأنته في كلمتين ... وصافحني مصافحة شديدة وتركني أصعد إلى السيارة، وانطلقت فتنفست الصعداء.

بلغت الفندق في أول المساء وقد أنهكني التعب وأجهدني سهر تلك الليلة الملعونة ... فصعدت من فوري إلى حجرتي فخلعت ملابسي المعفرة بالتراب الآهلة بالبراغيث، ودخلت الحمام ... ولبثت في الماء الدافئ ساعة ثم خرجت منه إلى فراشي، فنمت نومًا عميقًا لم أتنبه منه إلا في صباح اليوم التالي.

ومضت حياتي بعد ذلك على وتيرتها المعتادة ... فنسيت ما كان من أمر هذه القصة وما يكون ... وتناهبتني المشاغل المختلفة ... ومرت الأيام فما راعني إلا صاحبي المخرج يستأذن عليَّ عصر ذات يوم ... فلما ضمَّنَا المجلس ... بادرني قائلًا في صيحة فرح: لقد وجدنا «أمينة» رائعة!

فقطبت جبيني: أمينة؟

– بطلة القصة.

– آه!

– انظر.

وأخرج من جيبه صورة فوتوغرافية لفتاة ريفية باهرة الجمال حقًّا، فتأملتها مليًّا وقلت له: أين عثرت عليها؟

– لا أخفي عنك ... الحقيقة لست أنا الذي عثر عليها ... لقد بحثنا عبثًا في القرية التي نحن فيها والقرى المجاورة عن وجه صالح فالتجأنا آخر الأمر إلى شيخ العرب «...» المتعهد المعروف لشركات أوروبا وأمريكا، وهو يقيم على مقربة من الأهرام ... وقد اعتاد توريد الوجوه والخيول والإبل وأفراد الكمبارس، لجميع الأفلام التي تصوِّر مصر والشرق، والبدو والصحراء ... ولقد جئتك اليوم بالذات ... أدعوك إلى خيمة الشيخ غدًا حيث يعرض علينا فرسان البدو ألعابًا ... ويقدِّم إلينا كثيرًا من الفتيان والفتيات لنختار من بينهم بقية الأشخاص المطلوبة ... ينبغي إذن أن تكون موجودًا معنا لهذا الغرض من الصباح الباكر.

فتمثل لي شبح الجهد الذي أضناني يوم ذهبت إلى الريف، فصحت: هذا مستحيل.

وأبديت أعذارًا شتى وتذرعت بحجج كثيرة ... فما وسع الرجل إلا أن أطرق أسفًا ثم قال: لا أقل من أن تحضر إذن وليمة العشاء.

– أي عشاء؟

فأخبرني أن المتولي الأمور المالية والإدارية لهذه الشركة قد أعد خيمة بجوار الأهرام ... ودعا إلى العشاء مساء الغد بعض أفراد الجاليات الأوروبية المتصلين بشئون الفن ...

فقلت له: ولا هذه أيضًا ... فأنا لست رجل مجتمعات، ولا فائدة تُرجى لكم مني ذلك المساء ... فدعني وشأني ... فأصر ... وقال: إنها نزهة لن تستغرق أكثر من ساعتين ... وأنه سيبعث إليَّ السيارة تحملني من الفندق قبيل الثامنة ... ثم نهض مستأذنًا في الانصراف قائلًا: إلى الغد.

وذهب، فسرَّني منه أنه لم يذكر شيئًا عن الحوار ... فقلت في نفسي إن تلطفه بي ينبغي أن يقابَل مني بمثله، ووطنت العزم على أن أخصص عصر اليوم التالي لدراسة قصته ... وجاء الغد ... فابتُليت بما صرفني كالمعتاد عن هذا الأمر، إلى أن دخل المساء، فمكثت في حجرتي وخلوت إلى نفسي وقد فرغت من ارتداء ثيابي ... ورأيت الفرصة سانحة فأخرجت أوراق السيناريو ... وتحاملت على نفسي، وجعلت أطالع والحر يُسيل عرقي من

جبيني ... والمعاني — إذا كانت هناك معانٍ — تذوب قبيل أن تبلغ ذهني ... فما أنقذني مما أنا فيه غير التليفون ينبئني أن السيارة بباب الفندق في انتظاري ... فأعدت السيناريو إلى مكانه، ونزلت توًّا، فركبت وانطلقت ... إلى أن وقفت بي السيارة أمام خيمة قد ضُربت في صحراء الأهرام ... فهبطت واتجهت إليها، فرأيتها تعج بالمدعوين والمدعوات، وقد تبين لي أني أعرف أكثرهم من قبل ... وكانوا قد نصبوا المائدة خارج المضرب ... ووضعوا المقاعد الطويلة على الرمال ... فاضطجع عليها من أراد الاضطجاع، ودنا من المائدة من رغب في الطعام والشراب، وعلا المرح والضحك وطابت الأحاديث وحلا السمر، وجعل المخرج يعلن في كل مناسبة أني واضع الحوار، كأنما يريد أن يضعني موضع الحرج ... أو يبتغي مأربًا لم أتبينه ... على أي الحالين فقد ألَّب الكثير من الحاضرين عليَّ وجعلهم يقولون في شيء من الرضا والاغتباط والتأييد: لقد جذبتك الآن السينما!

فلم أدرِ بماذا أجيب؟ ... فهمهمت بكلام غير مسموع ثم انسللت من بين الجميع وانطرحت فوق مقعد طويل أتأمل الصحراء الممتدة أمامي كأنها البحر، وأرى ضوء القمر يلاعب رمالها المتموجة فيخيل إليَّ أنها الأمواج ... وأغمضت عيني لأخادع نفسي فأتصور أني مستلقٍ على مقعدي فوق ظهر الباخرة إلى أوروبا الجميلة ... وشعرت بصوت شخص إلى جواري على مقعد طويلٍ خالٍ ... فالتفتُّ ... فإذا سيدة من المدعوات تريد أن تحادثني ... ولم تُضع وقتًا فقالت: إنك تحب الوحدة.

فقلت دون أن أتحرك وكأني أخاطب نفسي: إنها كُتبت عليَّ.

– إني أراك تهرب من الجميع.

– قبل أن يهربوا مني.

ولزمتُ الصمت، فلم تدرِ كيف نمضي في الحديث فنظرتْ إلى السماء وقالت.

– إن القمر جميل.

– هذا صحيح.

ولم أقل أكثر من ذلك، فسكتت السيدة قليلًا ثم قالت: لقد قرأت أحد كتبك، فألفيته فياضًا بروح الدعابة والفكاهة والحديث الطلي ... فتصوَّرتك كذلك في الحياة والحقيقة!

– آسف أني خيبت ظنك.

– كلا ... لم يخب ظني ... إنما أنت كالقمر تضيء عن بُعد ... فبادرت أتم عبارتها: فإذا دنوت منه وجدته جسمًا معتمًا.

فأسرعت تقول في صوت المعتذر: عفوًا! ... لم أرد الذهاب في التشبيه إلى هذا الحد.

– ينبغي ذلك حتى يكون للمقارنة صدقها وبراعتها، وتلك مع ذلك هي الحقيقة في واقع الأمر.

– إنك تغلو في الحكم على نفسك.

– لا.

– إني أراك الآن مثلًا قد بدأت تُخرج حديثًا شيقًا.

– لأنك عرفت كيف تَخِزين موضعًا من المواضع التي يعنيني الكلام فيها ... إني مثل الثعبان الكسول؛ في أيام الشتاء يظل ملتفًّا حول نفسه وقد برد دمه وتجمد ... فلا توقظه إلا وخزة تُخرج من فمه السم ... هنالك مواضيع إذا وخزني فيها واخز لا بد أن أفرز كلامًا ... ثم أعود بعدها إلى صمتي ووحدتي والتفافي حول نفسي.

– وما هو هذا الموضوع الذي وخزتك فيه الآن؟

– نفسي ... أتريدين أن أبرز لك صورة من نفسي كما أراها؟ ... إني بناء قائم على ماءٍ جارٍ ... وصرحٌ مشيد فوق رمال ... لا شيء عندي قابل للبقاء أو صالح للاستمرار ... إني لا أقدس شيئًا ولا أحترم أحدًا ولا أنظر بعين الجد إلا إلى أمر واحد: الفكر ... هذا النور اللامع في قمة هرم ذي أركان أربعة: الجمال والخير والحق والحرية ... هذا الهرم هو وحده الشيء الثابت في وجودي ... إني كما ترين لست رجل مجتمع ... فأنا لست بارع الحديث ولا حاضر الذهن، ولا ظريف المجلس، ولا أصلح للكلام في الناس ... إذا حضرت وليمة فلا ينبغي أن ينتظر مني الحاضرون أكثر مما ينتظرون من طيف يصغي ويلاحظ إذا شاء وقتما يشاء دون أن تسلَّط عليه أنوار تكشف عن وجوده ... لقد اختلف في أمري من قديم كل من عرفني، وما زالوا يختلفون ... فأنا عند البعض بسيط ساذج ... وعند الآخرين ماهر ماكر ... قال لي ذات مرة أحد الملاحظين لأمري: «عجبًا لك! ... إنك تجهل الأشياء التي لا ينبغي أن يجهلها أحد، وتعرف الأشياء التي لا يعرفها أحد! ...» وقالت لي صاحبة نزل أقمت فيه أيامًا: «اسمح لي أن أستوضحك أمرًا: أحاول عبثًا أن أستقر على رأي فيك، إنه ليبدو عليك أحيانًا أنك لا تعرف ما تريد ... بل يبدو عليك — وأرجو أن تغفر لي هذا التعبير — أنك قليل الفطنة، بسيط التفكير، ولكنك أحيانًا أخرى تبدو فوق مستوى من رأيناهم جميعًا ها هنا إدراكًا وتيقظًا وتفكيرًا ... أنت ولا شك لغز من الألغاز! ...» في كل مكان أسمع من يقول عني ذلك ... من أجل هذا فقدت حياتي ذلك الوضوح الذي تقام عليه الحياة الثابتة ... ولقد تأثرت بهذا الغموض في تكوين شخصيتي، فجعلت أطيل البحث في ذلك أنا أيضًا ... فجنحت إلى التأمل الطويل منذ

الصغر ... وتقدمت بي الحياة ... فكنت في كل طور من أطوارها أستوثق من أن الطبيعة قد ترددت هي الأخرى في أمر تسليحي بهبات واضحة قاطعة ... لقد كان شأني دائمًا شأن «جحش» عثرنا عليه ثم أطلقنا عليه اسم «الفيلسوف» خرج إلى الحياة منذ يومين فانصرف عن «زجاجة اللبن» إلى مرآة الخزائن يتأمل نفسه! ... أنا كذلك انصرفت منذ عهود الصبا عن مباهج الحياة التي تغري الشبان والفتيان إلى تلك المرآة التي أرى فيها نفسى ... على أنه تأمل، هو أبعد ما يكون عن تأمل «نرسيس» لنفسه في مياه الغدران ... لم يكن تأمل الزهو والافتتان ... بل تأمل الباحث الحيران ... إني من أشد الناس تنقيبًا في أنحاء نفسي ... لأني أعتقد أن الطبيعة لم تسخُ عليَّ ... فلم تمنحني لمعانًا ولا بريقًا ... إني جسم معتم أضيء كما تقولين بما ينعكس على أديم نفسي من أفكار ... ولا شيء غير ذلك ... أما في الحقيقة فأنا أرض قحلاء جرداء كلها صخور وأحجار، لا يمكن أن يأنس إليها آدميون ... هل سمعت بأحد يعيش في المجتمع بلا أصدقاء ... أنا أعيش منفردًا بلا أصدقاء، لا أرى أحدًا إلا لمامًا، للتحدث قليلًا في شئون الأدب أو الفكر أو الفن ... أناس من أهل مهنتي ... تقضي الضرورة أن ألقاهم ... أما أكثر أيامي فأنا بعيد عن المجتمع، لا أسأل عن أحد ولا يسأل أحد عني ... لأني لا أملك صفة من تلك الصفات التي تجذب الناس إليَّ أو تغريهم بصحبتي ... فإذا أنفقت الوقت بحثًا وتنقيبًا في أرجاء نفسي الموحشة المقفرة فإنما يدفعني إلى ذلك الأمل في أن أستكشف في بعض شعابها معدنًا نفيسًا له شيء من البريق ... وسكت ... ولم تجرؤ السيدة على الكلام ... فقد بدا عليها بعض التأثر ... وأرادت أن تقول شيئًا ... وإذا أحد المدعوين يقبل عليها فيشاغلها بالحديث ... وأطبقت أنا عيني واستسلمت لتخيلاتي ... وتعاون الليل الجميل مع النسيم اللطيف فحملا النوم إلى جفوني فما شعرت بشيء حولي ... إلا وقع غطاء خفيف من الصوف قد ألقته على جسمي يد رفيقة ... ثم همسات تصل إلى وعيي بين ساعة وأخرى كلما خفَّت إغفاءتي لسبب من الأسباب ... وكان يخيل إليَّ أحيانًا أني أسمع بعض الحاضرين يقول: أهو نائم؟

فيقول صوت عذب لإحدى السيدات: كنت أريد أن ألقي عليه سؤالًا.

فيجيبها صوت آخر: لا توقظيه ... إن نومه عميق.

فتقول: عجبًا له ... كنا نحب أن يتحدث إلينا ... ولكنه قضى السهرة ... غير ساهر.

فأجابها صوت أعرفه: إنه كذلك في أكثر الاجتماعات التي شاهدته فيها: حاضر وغائب ... ومعنا وليس معنا.

ثم انصرفوا إلى شأنهم وضحكهم ومرحهم، إلى أن ذهب أكثر الليل وحانت ساعة الأوبة ... ووجدوا ألا مناص من إيقاظي ... فأيقظوني، وأعدوا مكاني من السيارة، فودَّعتهم وأنا نصف يقظان.

الفصل الثالث عشر

زارني صاحبي المخرج في اليوم التالي وقال لي في نبرة يخالطها شيء من السخرية الخفيفة: أرجو أن تكون قد نمت نومًا هنيئًا في سهرة البارحة.

فقلت له: لعل ذلك لم يضايق ضيوفك.

– مطلقًا ... لو حدث ذلك من غيرك لكان له معنًى آخر.

أما أنت فتستطيع أن تفعل ما تشاء.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن للفنان حرية لا يتمتع بها الآخرون، لقد كان المصور الشهير «بيكاسو» يحضر بعض الحفلات الساهرة برداء العمل الملطخ بالأصباغ في حين أن الآخرين ما كان يباح لهم الحضور بغير «الفراك».

شكرًا على هذه الحجج الكريمة والأعذار الجميلة التي تنتحلها لي.

– بل هو الواقع ... لم يكن لي عليك إلا مأخذ واحد!

– واحد فقط؟

نعم ... لقد أثرت عن عمدٍ موضوع الحوار ... وكنت أحسبك تتكلم قليلًا في الحاضرين.

فقاطعته: أنا أتكلم في الحاضرين؟! ... من قال لك إن من طبيعتي أن أتكلم في حاضرين أو غائبين.

فقال وهو ينظر إليَّ مليًّا: كنت أجهل طبيعتك، أما الآن فقد فهمت ... إنك لا تتكلم في الناس ... ولكنك تصنع الحوار الذي ينبغي أن يتكلم به أشخاص قصتك.

فنظر إليَّ نظرات القلق وقال: أولا تستطيع ذلك؟

– لا أستطيع.

فبدا عليه أنه لم يفهم عني ... ولبث ينظر إليَّ نظرات الاستفهام وينتظر إيضاحًا ... فقلت له: لقد تبين لي شيء كنت أجهله قبل أن أراك: إن الكاتب الحق لا يمكن أن يلذَّ له العمل للسينما؛ ذلك أن السينما تُخضع كل شيء لإرادة المخرج ... فمخرج السينما هو المنسق لكل شيء وهو الخلاق الذي يطبع العمل كله بطابعه ... فما صانع السيناريو وما واضع الحوار وما مهندس المناظر والأصوات وما المصورون وما الممثلون ... إلخ إلخ، إلا عناصر متفرقة وأجزاء أشتات، المخرج جامعها وموحدها وموجهها إلى حيث يصبها في القالب الذي يريد ... مثله مثل الكاتب في ميدانه ... فالكاتب الحقيقي هو أيضًا ذلك الذي يخضع كل شيء لمشيئته، هو الذي يجمع الصور والمشاهدات والملاحظات والتجاريب الشخصية وحوادث المجتمع وأخبار التاريخ وأساطير الأقدمين، ويستخلص من كل هذا أو من بعضه عناصر وأجزاء يؤلف من بينها عملًا فنيًّا واحدًا قائمًا بذاته ... إن الكاتب الحقيقي ليس ذلك الذي يرصف في لغته جملًا فخمة وعبارات جميلة، إنما هو ذلك الذي يخلق عالمًا زاخرًا بالأشخاص التي تحيا وتسعى وتشعر ... دون أن يحتاج في إنشاء هذا العالم إلى غير قلمه وحده ... فشكسبير، وموليير، وجوته، كُتاب حقيقيون؛ لأن قَصصهم التمثيلي استطاع أن يبرز للإنسانية عوالم هائلة رائعة تقوم بنفسها بمجرد القراءة دون الالتجاء إلى مسرح وممثلين ... ولو أن آياتهم وآثارهم احتاجت كل الاحتياج إلى التمثيل لتقوم على أقدامها لَمَا سميناهم كُتَّابًا ... الكاتب الحقيقي هو دائمًا كلٌّ لا جزء ... بل إن طبقات الكتاب تختلف باختلاف قدرتهم على هذه الكلية وهذا التمام ... فالكُتاب العظام في نظري هم أولئك الذين منحتهم السماء كل مفاتيح المشاعر البشرية، فهم قديرون على الإبكاء والإضحاك والارتفاع بالمشاعر والأفكار إلى قمم الخيال والشعر والتصوف، والهبوط بها إلى أرض الواقع والطبيعة الدنيا ... من أجل ذلك كان أيضًا هؤلاء الثلاثة الذين ذكرتهم كُتابًا عظامًا كاملين؛ فشكسبير في كوميدياته ودراماته وشعره، قد طاف بكل ما عرفه الإنسان من مشاعر، وتألقت أعماله بكل أشعة الكون الفكري المعروف، وكذلك موليير قد أثبت في بعض قصصه أنه قدير على الجد قدرته على الهزل ... أما جوته فهو العبقرية الجامعة الجاملة ... في حين أن كثيرين غيرهم اقتصرت عظمتهم على ناحية من نواحي الإحساس الإنساني، فجاءت عوالمهم التي خلقوها كواكب رائعة باهرة سابحة هي الأخرى في الكون الفكري، ولكن أشعتها لا تحتوي على كل ما في قوس قزح، هذا الكون من ألوان وأضواء وأنوار ... ثم إن الكاتب العظيم كالمخرج السينمائي يستطيع أن يضع طابعه على أعمال أجزاؤها ليست من صنعه ... فشكسبير قد هبط على كثير من القصص الإيطالي، وموليير على كثير من القصص الإسباني، وجوته على كثير من أساطير القرون الوسطى

... فالكاتب العظيم كالفاتح العظيم يقع أحيانًا على أرض ليست له، فيُخضعها لسلطانه، ويقر فيها نُظمه وأحكامه، ويصبغها بلون تفكيره وحضارته، ثم يضع عليها راية عبقريته ليعترف بها التاريخ.

وأطرقت في صمت ... فالتفت إليَّ صاحبي قائلًا في صوت حزين: والنتيجة؟

فنهضت وأحضرت أوراق قصته فدفعتها إليه ... وأخرجت دفتر الشيكات وقلت: النتيجة أن أرد مالكم ونفسخ العقد.

فوجم الرجل ... وأطرق لحظة ... ثم رفع رأسه وقال: أرجو أن تتريث قليلًا وأن تسمح لي أن أغلظ لك فأقول إنك أكسل من رأيت ... وأن كل هذا الكلام الذي قلته الساعة ليس سوى حجج تؤلفها لتدفع عنك عبء هذا العمل ... ولكني أحب أن تفكر في الأمر مليًّا ... لأن انسحابك صدمة لي لن ترضيك.

ففكرت قليلًا ثم قلت: لعلك مصيب ... وربما كان الحر والتعب وجهد العام ... على كل حال ... لا أمل لي في العمل هنا ... وموعد السفر قد دنا ... فإذا رأيت أن أحمل السيناريو معي إلى سويسرا: فإني واثق أن الحوار يتم في خلال أسبوعين فوق تلك الجبال الجميلة والبحيرات الرائعة والهواء النقي ... وأن المواصلات بالطائرات يسيرة سريعة ... فإذا شئت فإني أبعث إليك ما أصنعه أولًا بأول ... فيصلك بعد يومين ... وإذا شئت فإني ألتقي في فرنسا بعد ذلك بالمسيو «...» لأعينه على وضع النص الفرنسي ... فما قولك؟

فتفكر الرجل لحظة ... ثم قال: لا أستطيع أن أعدك بشيء ... ينبغي أن أتدبر الأمر مع المصور والمساعدين ... لأرى إذا كان في الإمكان مباشرة العمل بغير الحوار في بعض الأجزاء فنتجنب العطلة الطويلة.

ونهض وانصرف على أن يذهب إلى الريف في صباح الغد الباكر.

الفصل الرابع عشر

مرت الأيام ... ولم يبدُ لصاحبي المخرج أثر ... ولم يبقَ غير يومين على رحيل الباخرة التي كنت قد حجزت فيها مكاني ... فلم أقلق ولم أهتم ... فما كان شيء يستطيع أن يحول بيني وبين الخلاص من جحيم الصيف في القاهرة ... وقلت في نفسي: سأحمل معي قصته وأكتب له من أوروبا، ولعلي أبعث إليه بجزء من الحوار ليطمئن قلبه ... وسافرت في اليوم التالي إلى الإسكندرية ... ثم أبحرت ... ثم بلغت «لوسرين» حيث حضرت الكونسير الأولى للموسيقى «توسكانيني»، وهنا نسيت كل النسيان مصر وشئون مصر ... ولم أذكر سيناريو ... ولا سينما ... ولا مخرجًا ولا حوارًا ... ونسيت حتى أن أكتب إليه لأخبره برحيلي ومكاني، بل نسيت حتى حماري «الفيلسوف» وأحواله وأطواره ومرآته وتعاليمه وما جرى له وما يجري له ... وتركت سويسرا إلى فرنسا ... وتنقلت في جبال السافوا العليا وغمرت نفسي في راحة مطلقة ... وذهني في ركود تام، فلم أفتح صحيفة ولم أقرأ كتابًا ... ولم أحرر خطابًا ... ولم أحمل قلمًا ولا ورقًا ... وإنما حملت في يدٍ عصا الجبل ذات الطرف الحديدي وفي الأخرى عصا السمك وعلبة الطُّعم أطوف بها على البحيرات الصغيرة أحاول عبثًا اصطياد سمكة من تلك الأسماك التي تحت أنفي وتسخر من طُعْمي.

وأقفلت راجعًا إلى مصر قبيل شهر سبتمبر ... فوجدت في انتظاري خطابين مسجلين من محامي الشركة يشيران إلى العقد وأمر تنفيذه، وإلى التبعة التي نتجت عن التأخير ... فأفقت في الحال من أحلام الصيف ... وتذكرت كل شيء ... فأخرجت كراسة السيناريو من الحقائب ... ووطنت العزم على العمل ... فقد بعثت الرحلة في نفسي النشاط ... فأقبلت على مطالعة القصة وأنا أقول لنفسي: «فلأصنع شيئًا على الأقل ثم اتصل بالمخرج ليرى أني لم أنسه طول الوقت، ولكن المطالعة ما كانت تزيدني إلا اقتناعًا بأن هذا العمل مستحيل ...

فأشخاص القصة بعيدون عن مشاعري كل البعد ... فأنا لا أراهم ... ولا أعرفهم ... إنهم غرباء عني ...»

كيف يُطلَب إليَّ أن أضع في أفواههم كلامًا، كما يضع طبيب الأسنان «أطقمًا» ذهبية في أفواه الناس؟ ... فطرحت الأوراق يائسًا ... ونهضت أكتب إلى المخرج كي يقابلني ... وأنا أصيح في الحجرة: ينبغي أن أُفهِم هذا الرجل أخيرًا أني لا أصنع كلامًا لأشخاص ... وإنما أصنع أشخاصًا يتكلمون!

كان جو العالم السياسي في ذلك الحين قد اكفهرَّ اكفهرارًا ينذر بالويل ... فقد طغت شهوة الاستعباد في نفوس شعوب تسمي أنفسها «راقية»، فنبذت تعاليم أولئك الذين عرفوا أنفسهم فكشفوا للإنسانية عما في نفسها من جمال وصفاء، وسلمت أمورها لأولئك الذين جهلوا أنهم جهلاء فأيقظوا فيها غرائز الجشع والظلم والدماء.

وما كاد المخرج يعلم وجودي في القاهرة، وكانت قد بدأت مجزرة الوحوش البشرية فجاءني يقول: لقد أوقفت الحرب بالضرورة أعمال هذا الشريط، وسنرحل بعد أيام ... وأرجو المعذرة للخطابات المسجلة فإن سفرك وانقطاع أخبارك اضطرنا إلى هذا الإجراء لندرأ عنا أمام الشركة مسئولية التأخير ... فقلت له: والعقد الذي بيننا؟

فأجاب: قائم بالطبع لحين استئناف العمل.

– متى؟

– بعد الحرب.

– لقد كنت أفكر في طلب إلغاء هذا العقد.

– لماذا؟ ... لا تيأس بهذه السرعة ... الوقت أمامك الآن متسع للتفكير الطويل والعمل البطيء وسنخطرك بالطبع عند الاحتياج إليك.

وسُوِّيَ أمري مع هذه الشركة على هذا الوجه وحُلَّ الموقف مؤقتًا على الأقل، هذا الحل غير المنتظر ... واطمأن قلبي كل الاطمئنان ... فقلت لصاحبي المخرج: هلم معي إلى مطعم الفندق ... إني أدعوك للعشاء.

فقال لي وهو يهبط معي بالمصعد إلى قاعة الطعام في الطابق الأسفل: أرجو ألا يكون عشاء الوداع.

– أرجو ذلك.

وجلسنا إلى المائدة فبادرني قائلًا: عندي لك خبر محزن.

فالتفت إليه قلقًا: ماذا؟

فأجاب في صوت الأسف: صديقك «الفيلسوف».

فقاطعته: مات؟

– يوم إبحارك.

وا أسفاه! ... لقد كنت نسيته ... إني ناكث للعهد ... وتصورت منظره ورزانته وصيامه ... وقلت: لقد كان جميلًا زاهدًا حكيمًا!

فقال المخرج: لا تحزن، سأبعث إليك بصورته التي التقطناها له.

فقلت كالمخاطب لنفسي: صورته! ... نعم أذكر يوم التقطتم له هذه الصورة.

ثم تخيلته يوم وضع رأسه في كفي ... كأنه يفكر ... لو أنه كان يفكر مثلنا برأسه ... ذلك الجهاز المحدود التفكير ... آه، لقد استطاع هذا الفيلسوف الصغير أن يبلغ قمة «الصفاء» ... تلك القمة التي طمع «جوته» في أن يبلغها يومًا ... لقد استطاع هذا الصديق الراحل أن يرى الحياة والموت من ثقب واحد ... وأن يرى الكائنات المتحركة والجامدة من عين واحدة ... وأن يخترق الكون كله بجسمه الصغير النحيل في يومين ويمضي، وأن يتوهم أنه زعيم خطير أو مفكر بصير ... إن هذا الشيء الحقير الذي سميناه جحشنا هو في نظر «الحقيقة العليا» مخلوق يثير الاحترام في حين أن كثيرًا ممن سميناهم زعماء وعظماء فركبوه، ولم يبصروا الغرور وهو يركب رءوسهم ... هم في نظر «الحقيقة العليا» مخلوقات تثير السخرية! ... نعم كنت أشعر دائمًا شعورًا غامضًا أن حبي لهذا الجحش هو حب مقترن بشيء آخر غير العطف والإشفاق ... إنه التقدير والتبجيل ... أحمد الله أنه مات قبل أن يكبر فيُركب ... إني كنت أخجل من ذلك ولا ريب ... لأني كنت أسمع في كل خطوة من خطواته المتزنة همسات تتصاعد من أعماق نفسه التي في عمق المحيط: «أيها الزمان»، أيها الزمان! ... متى تُنصف أيها الزمان فأَركب ... فأنا جاهل بسيط أما صاحبي فجاهل مركَّب!

هنداوي